

بقايا القهوة

ماريو بينيديتي

ترجمة : محمد العشيري



نبذة عن المؤلف:

ينظر إلى ماريو بينيديتي (1920_2009) من الأوروغواي باعتباره مؤلفاً متعدد المواهب، فله دواوين شعرية وقصص قصيرة، وروايات ومقالات، إلا أن أكثر ما برع فيه كتابة القصائد، حتى أن إحدى رواياته "عيد ميلاد خوان أنخيل" كتبها على شكل قصيدة شعرية طويلة، كما أن عدداً كبيراً من قصائده حولت إلى أغان يرددها الكبار والصغار في إسبانيا وأمريكا اللاتينية، فشعره يمتاز بالبساطة والوضوح.. غير أن الأعمال التي بفضلها ذاع صيت هذ الكاتب (من خلال الترجمة إلى لغات عديدة) هي الروايات والقصص القصيرة، مثل المجموعة القصصية "ناس من مونتيفيديو" 1959، ورواية "الهدنة" 1960 التي لاقت نجاحاً فاجأ مؤلفها نفسه، إذ ضربت أرقاماً قياسية من حيث عدد الطبعات، كما حولت إلى فيلم سينمائي ومن ثم مسرحية، وإلى استوديوهات التلفاز والراديو.

من أعماله أيضاً: "الموت ومفاجآت أخرى"1968، "بحنين وبدونه"1977، "شكراً على إشعالك سيجارتي"1965 .

رواية

بقايا القهوة

ماريو بينيديتي

ترجمة: محمد العشيري

مراجعة: أ.د. زينب بسانة

الطبعة الأولى 1432هـ يناير 2011م

PQ8519.B292 B6712 2011
Benedetti, Mario
بقايا القهوة : (رواية) / تأليف: ماريو بينيديتي؛ ترجمة: محمد العشيري؛ مراجعة: زينب بنياية/ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» 2011.
ص 257 : 12.5×19 سم
ترجمة كتاب : La borra del café
تدمك: 978-9948-01-791-2
1 - القصص الإسبانية – المترجمات إلى العربية.
أ- عشيري، محمد. ب- بنياية، زينب.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الأسباني:
Mario Benedetti
La borra del cafe



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

بقايا القهوة

إلى من ترجموا أعمالي
لامتلاكهم الصبر وفنَّ إعادة
صياغة كلامِ وصمتِ شخصياتي
المونتيفيدية
في أكثر من عشرين لغة.

إلى أين يذهب الضباب وبقايا القهوة وتقاويم الزمن الماضي؟

خوليو كورتاثار

لا توجد أشياء زائفة. يكفي قليل من الايمان لكي يصبح كل شيء حقيقة.

لوي جوبيه

(مدخل الفنانين)

أحرار نحن كأطفال
قريبين من الخلود.

ميلتون شينكا

المحتويات

انتقالات

كانت أسرتي تغيِّر مسكنها دوماً. على الأقل، منذ بدأت أتذكَّرالأشياء. ولكن يجب أن أقول، من باب الإيضاح، أن انتقالنا من مسكنٍ إلى آخر، لم يكن سببه عدم دفع الإيجار وبالتالي إرغامنا على تركه، بل كانت له أسباب أخرى، ربما تافهة، لكنها لاتدعو إلى الخجل. أعترف أن هذه الحركة المتجدِّدة دائماً، لفتح وإغلاق الأدراج والصناديق والرُّزَم الكبيرة والحقائب كانت تشكِّل متعة بالنسبة إلي. فكل شيء كان يعود إلى مكانه في الدواليب والرفوف والخزانات والأدراج، وإن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة لا تغادر الصناديق (لم تكن دائماً هي ذاتها). كان البيت الجديد (لم نكن قطُّ مالكين، بل مستأجرين دوماً) يكتسي في بضعة أيام شكل المأوى شبه النهائي أو على الأقل، مكان إقامة قار، وأظن أن هذا هو ما كان والداي يعتقدانِه بصدق، ولكن قبل انقضاء العام، كان أحدهما، أبي أو أمي (ليس الاثنان معاً) يبدأ بالتلميح بتعليقات (كان يصعب فهمها في البداية، لكنها كانت تزداد وضوحاً مع مرور الأيام) تُضمِر، في العمق، اقتراحاً بتغيير

المسكن، من جديد. في الغالب، كانت الأعذار التي يسوقها أبي هي عدم دخول أشعة الشمس ورطوبة الجدران وضيق الممرات والضجيج الخارجي والجيران الذين يتجسسون، إلخ. أما الأسباب التي كانت تحتجُّ بها أمي فكانت أكثر تنوعاً، لكن عادة ما كانت لائحتها تشمل أشعة الشمس المفرطة والجفاف في الجو والفضاءات الداخلية التي تتَّسع أكثر مما ينبغي، وعدم التواصل مع الجيران والشوارع التي تنعدم فيها الحركة، إلخ. ثمَّ إن أبي كان يحب هدوء الأحياء التي تقع في الضواحي، بينما كانت أمي تفضِّل صخب وسط المدينة.

ولكن اطمئنوا! فأنا لن أسرد عليكم قصة «مساكني» كلِّها، بل ابتداءً فقط من تلك التي شهدَت أحداثاً مهمة في حياتي (أو كما قال الشاعر في نوبة تكلُّف لا تخلو من نبوغ، «أشياء صغيرة بالنسبة للعالم / ولكن كبيرة بالنسبة إلي»). ولدتُ في (طابق أعلى) لبيت بِحي خوستيسيا إي نويبا بالميرا، حيث مكثنا (وهذا استثناء) ثلاث سنوات. لا أحتفظ سوى بذكريات قليلة: أذكر أنه كانت هناك كوة في السقف تحدث ضجيجاً كبيراً عند فتحها أو إغلاقها، وهذا لم يكن يحدث إلا لماماً، نظراً لأن المقبض، الذي كان يوجد بجدار الفناء، كان صلباً للغاية ولا يقوم بمهمته إلا بالمجهود المشترك لشخصين قويين بما فيه الكفاية. وفي الأيام

المطرة، كان المقبض الملعون يوجّه صعقات فظيعة بفعل التيار الكهربائي، ولذلك فإن تلك الكوة لم يكن يمكن فتحها أو إغلاقها إلا إذا كان الجو حاراً.

انتقلنا بعد ذلك، ودون أن نغادر الحي، إلى إينكا إي ليما. هناك، لعل أكثر شيء أتذكره هو المرحاض، إذ عندما كان أحدهم يجذب السلسلة، بدل أن تقوم بمهمتها الصحية وهي تنظيف المرحاض، كان الماء يتدفق غزيراً من الخزّان ليبلّل التعيس الذي قضى حاجته، والأرضية المصنوعة من الزليج الأخضر أيضاً. بعد ذلك انتقلنا إلى خواكين ريكينا إي ميغيليتي، حيث كان ضجيج الشارع أقوى، ولكن المرحاض كان يقوم بمهمته على أحسن وجه ولم نكن نضطر لقضاء الحاجة ونحن نرتدي مِطَراً أو قبعة. من هذا البيت، الذي كان أكثر تواضعاً من البيوت السابقة بكثير، ربما كان الشيء الوحيد الذي يستحق أن أذكره هو الحاكي الذي كانت تضع فيه أمي، عندما كان يغيب أبي، أسطوانة لدروس في الرياضة، تبدأ دائماً بصوت فصيح يقول: «انتباه! استعداد! نبدأ!» وكانت أمي تطيع الصوت وتبدأ. وقد كنت وأنا حينئذٍ ابن الخامسة والنصف من العمر أنظر إليها بإعجاب كبير، عندما كانت تتمدّد على الأرض وترفع رجليها أو تجلس القرفصاء وتمد ذراعيها، وعندما تفعل ذلك، تسقط إلى اليمين أو إلى اليسار، وأنا

أظن أن ذلك يحدث بأمر من الإسباني الذي يتكلم في الأسطوانة. (يجب أن أوضح هنا أنني لم أتعرَّف على لكنة صوت ذلك المنشِّط إلاَّ بعد ذلك بسنوات عديدة، تحديداً، ذات مساء، عندما عثرت على تلك التحفة التي تقوم بـ 78 دورة في الدقيقة، في صندوق، وعُدتُ إلى الاستماع إليها في فونوغراف). على كل حال، كنت أصفِّق لأمي بحماس، أما هي فعندما كانت تنتهي من الدرس المسموع، واعترافاً منها بتفهُّمي وتشجيعي، كانت تحملني بين ذراعيها وتقبِّلني قبلة رنانة، ولكن أقل عذوبة من قبلاتها الأخرى، نظراً لأنها، وكما هو طبيعي بعد الحركات الرياضية، كانت تعرق بشكل فظيع.

المسكن التالي (أكثر تواضعاً) كان يوجد في هوكارت إي خوان بوليي. وكان على بعد أربع بناياتٍ من السابق فقط، ولذلك، لم يكن من السَّهل العثور على سائق شاحنة يقبل أن يتكفل بنقل الأثاث، نظراً لِقصَر المسافة. الأمر الذي كان بالنسبة إلى أبي غير معقول، والحق معه تماماً، فعناء شحن وتفريغ الأثاث هو ذاته، تماماً كما لو كانت المسافة بين المنزلين خمسة عشر كيلومتراً. أخيراً وجدنا سائقاً وافق على أن يتكفل بنقل غير تقليدي كذاك، مقابل علاوة جيدة في الأجر، ولكن المزاج السيئ لذلك السائق ومساعديه كان جليّاً، لدرجة أن أحداً لم يفاجأ، لأن إحدى

الخزانات قد فقدت قوائمها كلّها إلاّ واحدة، وإحدى المرايا قد انشطرت إلى قمرين: أحدهما هلال متنامٍ، والآخر متناقص. كانت إقامتنا الجديدة ضيقة إلى حدٍّ ما، وغالباً ما كنا نأكل في المطبخ. وكان أحسن شيء فيها هو السطح الذي كان متّصلاً بسطح الجيران، بحيث يمكن المرور إليه. هناك كان يوجد كلب ضخم كان يبدو لي مفترساً، وقد تحوّل إلى عدوِّي الأول. والأسوأ هو أنني، في المرات القليلة التي كنت أصعد فيها إلى السطح، كان الحيوان المسكين يهرُّ، وكأنه ملزم بذلك، ولكني ما إن اكتشفت أنه مقيَّد بسلسلة، حتى قررت بدوري (وكانت تلك أول علامة جبن لي أتذكّرها) أن أهرَّ في وجهه، ورغم أن تبجُّحي كان أقرب إلى حركة كاريكاتورية منها إلى شيء آخر، يجب أن أعترف أن ذلك لم يسهم في تحسين علاقتنا التي كانت سيئة بالأساس.

سكنّا بيوتاً أخرى خلال تلك الفترة، وكنّا دائماً متنقلين بين الأَحياء نفسها: نيكاراغوا إي كوفري، كونستيتوثيون إي غويس، بورونغوس إي بيدرنال. كان تغيير السّكن، في هذه المرحلة، قد تحوّل إلى هاجسٍ جماعي. تحوّلت هذه الانتقالات من مرتبة الكوابيس إلى مرتبة الأحلام. كلما كان يلوح في الأفق مسكن جديد، كان يتحول، بأضوائه وظلاله، إلى يوتوبيا، وعندما كنّا، أخيراً، نعبُر العتبة الجديدة كنا نحسُّ وكأننا ندخل قصر الإليزيه.

بطبيعة الحال، مرحلة السعادة تلك سرعان ما كانت تنتهي، لعدة اسباب فعلى سبيل المثال، سقوط قطعة من السقف ونحن نأكل، أو احتلال جيش منظم من النمل المطبخ بخطواتٍ سريعةٍ وسط عويل أمي الهستيري. ولكنَّ تلاشي الحلم في غمام خيباتنا، لم يكن لِيمنعنا من أن نشرع جميعاً في المساهمة، من أجل وضع مسوَّدةٍ لِحلم جديد.

إسعافات أولية

إن أوَّل بيت كان ذا أهمية بالغة، على الأقل بالنسبة لي، ولأسباب غير وجيهة أحياناً، وهو بيت شارع كابورُّو. أولاً، هناك وُلِدت أختي، ثانياً، وجد أبي عملاً جديداً وأسهم ذلك في ارتفاع مهمٍّ في مدخوله. ثالثاً وأخيراً، مرضتُ مرضاً شديداً جعل الطبيب يمنعني من الذهاب إلى المدرسة. وطالت فترة النقاهة، ولكن بعد مرور الأشهر الأولى، أحضر لي أبي معلمةً خاصةً، كانت تكرِّس ثلاثة أيام في الأسبوع، أربع ساعاتٍ كل يوم، لتكويني (المتعثِّر).

كان اسمها أنطونيا بيكو. أتذكَّر لقبها لأنه جاء على غرار «أبانيكو» (مروحة)، وكانت هذه أداة تحملها معها على مرِّ الفصول الأربعة. ورغم أنها كانت تحسُّ بالحرارة دوماً، إلاَّ أن أمي لم تقترح عليها قطُّ استعمال المروحة الكهربائية، لأن في حالتي، كمريض مزمن، أبسط تيارٍ هوائيٍّ كان من شأنه أن يجعل الحالة تسوء أو أن يُحدِث سلسلةً من اثنتين وثلاثين عطسةً، في أبسط الأحوال. إنني أتذكرها جيداً، كانت نحيفة، بشرتها بيضاء جداً وعيناها السوداوان كانتا توجهان إلي نظرتين مختلفتين: الأولى حلوة ومتسامحة، بحضور

والديَّ، والثانية مرتابة صارمة، عندما نبقى وحيدين. المهم أنه لم يكن حبّاً من أول نظرة.

بوجه عام، عندما يحظى أي طفل بمعلمةٍ خاصةٍ له وحده، الأمر الطبيعي هو أن يتلقى درس يوم الإثنين، ثم أن يراجعه بعد ذلك مراجعةً سريعة، لكي يعطي انطباعاً جيداً عنه، عندما تحين مراجعة يوم الأربعاء. لكنني كنت أفعل عكس ذلك تماماً: إذ كنت أحفظ يوم الإثنين الدرس الذي ستلقّنني إياه المعلمة يوم الأربعاء، وكان ذلك يثير في الفتاة المسكينة خيبة أملٍ كبيرة ونوعاً من الإحساس بالفراغ التربوي، وربما بالخوف من أن يعرف والداي أنني أتقدم في دراستي وحدي، دون حاجة إلى مساهمتها التعليمية، فيقرِّرا بالتالي الاستغناء عن خدماتها العقيمة. إلا أنني قد أكون إنساناً شريراً ولكني لست بِواشٍ، ولهذا لم أتحدث يوماً مع والدي بشأن حِيَلي الملتوية كتلميذ. لم يكن هدفي حرمان أنطونيا من عملها، بل أن تُدرك أي شخص تواجه. ولهذا استمررنا على هذا المنوال: أنا أحفظ درسها قبل أن تُلقِيَه، وهي تتعلم كيف تحترمني. وبما أنني كنت أحفظ كلَّ الدروس عن ظهر قلب، وأكتشف فوراً أي خطأ أو إغفالٍ قد يبدر منها، فقد كان الموقف يبدو أحياناً وكأنني أنا الذي ألقي الدرس وهي التي تمرُّ بموقفٍ حرج. وفقط بعد مرور ستة أشهر على تطبيقي هذا الأسلوب تطبيقاً صارماً، أي عندما اعتبرت أخيراً أن كرامتي

مصونة، فقط آنذاك قررت أن أسمح بأن تتخذ علاقتنا مجرى عادياً، وبالتالي قبِلتُ بأن تلقِّنني الدرس قبل أن أطَّلع أنا عليه. ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أنها أبدت لي امتنانها البالغ وأنها، منذ هذه التسوية "الجديدة، بدأت توجِّه إليَّ نظراتٍ حلوة ومتسامحة، حتى في غياب والديَّ. حتى ليخيَّل إليَّ أنها قد وقعت في حبي. وبما أننا وصلنا إلى هذا الحد، لم تعد هناك حاجة إلى إخفاء أي شيء: أظنُّني أحببتها قليلاً، أنا أيضاً، ربما لأن تلك النظرة الحلوة التي كنتُ أحظى بها أنا وحدي، كانت تذيب كياني من الداخل. في ذلك الوقت، لم أكن أبلغ من العمر سوى ثمانية أعوام، ولكن، ما سيتَّضح لي لاحقاً أَن نزعتي الجمالية، دفعتني إلى أن أنظر إلى ساقيها وأراهما رائعتين، ملتفَّتين ببراعة ومُغرِيتين. لعلها لم تكن فقط تلك النزعة الجمالية. عند هذا المستوى، أعتقد أن التعبير الشهواني الأول والمبكِّر لدي تُرجِم في تلك النظرات المتسترة التي كنت أوجِّهها إلى تلكما الساقين الجميلتين الكاملتين. كنت أراهما حتى في الأحلام، لكن الأمر لم يكن يتجاوز نظرات الإعجاب والدهشة، أيضاً في تلك الأحلام. هناك صور لاحقة تذكِّرني بأن أنطونيا كانت تملك نهدين في منتهى الفتنة وشفتين واعدتين، ولكن، وأنا في الثامنة من عمري، كان هيامي المبكِّر قد توقَّف عند ساقيها ولم يسمح لي بالانشغال بمناطق أخرى ذات أهمية.

تلك السفينة الغارقة

كان بيت شارع كابورُّو تحديداً هو المكان الذي بدأت أشعر فيه أنني أنتمي إلى أسرةٍ كبيرةٍ. كان قد جاء من سيرُّو لارغو، للإقامة بمونتيفيديو، ابنا خالٍ لي يكبرانني بسنتين. في البداية أقاما عند الجد خابيير، والد أمي. فيما بعد، جاء الأبوان أيضاً إلى العاصمة واستقروا جميعاً في كابورُّو، على بعد خمس بناياتٍ من بيتنا. ابنة خالتي، روسالبا، التي كانت تكبرني بثلاثة أعوامٍ، كانت تسكن في كانيلونيس، ولكنها كثيراً ما كانت تأتي لزيارتنا مع أمها، خالتي خواكينا، التي، في الواقع، لم تكن تُعجِب أبي كثيراً. وكثيراً ما كان يقول لأمي: «لا أطيق أختك، إنها غليظة، غليظة جداً وبليدة». وكانت أمي تكتفي بقول: «ولكنها أختي». والغريب في الأمر أن هذه الحجة هي الوحيدة التي كانت كفيلةً بِهزم أبي. من جهةٍ أخرى، كان الجد بينسينسو، والد أبي، يجلس عندنا دائماً، عندما يأتي من بوينوس أيريس – حيث كان يملك دكاناً أما الجدتان فلم نكن نراهما كثيراً، جدتي لأمي، لأنها كانت دائماً مريضة وبالتالي لم تكن تغادر البيت، ولم يكن من اللائق إزعاجها بزيارتنا. وجدتي

لأبي، لأنها كانت تقيم ببوينوس أيريس، وعندما كان يسافر الجد بينسينسو إلى مونتيفيديو، كان عليها أن تبقى هي لِتهتمّ بالدكان الموجود في كاباجيتو.

كان الجدُّ بينسينسو مرِحاً كالجدِّ خابيير، ولكن بأسلوبٍ مختلف. حكى لي، ذات مرةٍ، كيف نجا من حادثٍ مشهورٍ غرقت فيه إحدى السفن. سألته إذا ما كان قد نجا من الغرق لأنه يجيد السباحة فأجاب: «لا، لا، ماذا تقول؟ كنت دائماً أشبهَ بالطيورِ من الأسماك. ولكن الحقيقة هي أنني لا أجيد الطيران أيضاً!» وكانت قهقهته الفلورنسية تتردَّد في الفناء كصلصلة الأجراس. «إذن كيف تمكَّنتَ من النجاة؟» «بسيطة: أضعتُ الرحلة بِجنوة، حيث وصلت بعد إبحار الباخرة بنصف ساعة وكانت قد أبحرت في موعدها، بِدقَّة مقيتة. حاولت الحصول على زورق يوصلني إلى الباخرة (كنا ما نزال نراها). ولِحسن حظي، لم أنجح في المحاولة. وعندما عرفت بعد عشرة أيامٍ أن الباخرة قد غرقت في عرض المحيط، لم يخطر ببالي شيء أكثر أنانية من الاحتفال بذلك، بِداجانة من نبيذ «شيانتي». أعرف أن هذا لا يجوز، وأنه كان علي أن أفكِّر في الآخرين. لو حدث ذلك اليوم، لَما فعلت ذلك، ولكن في ذلك الوقت، كنت لا أزال شابّاً ولم أكن قد تعلَّمت أن أكون منافقاً بعد». وهنا أطلق قهقهةً أخرى. أما أنا فلم أضحكْ. أدركت، في الحال، أن الجدَّ لم يقرأ كتاب «قلب»

لإيدموندو دي أميسيس، إنجيلي في ذلك الوقت، لأنه لو كان قرأه لما كان ليتصرَّف ذلك التصرف الحقير، ولو كان ليقرِّر، على كل حالٍ، شرب دامجانة الخمر، لكان فعل ذلك بحزنٍ أو حتى ذارفاً بعض الدموع، من أجل أولئك الذين ماتوا غرقاً.

ولكن لا، جدِّي كان ما يزال مبتهجاً لأنه نجا من الموت بأعجوبة، وإن كان ذلك لم يُصلِح علاقته بقسِّيس الخورنيَّة التي ينتمي إليها، فقد كان طوال حياته ملحداً مقتنعاً بإلحاده، يهاجم الرب، ولكأنه ليس سوى مخطِّطٍ لحوادث القطارات أو غرق السفن.

حديقة لنا

كانت لِبيت شارع كابورُّو رائحة غريبة. بحسب رأي أبي، كانت رائحة ياسمين، وبحسب رأي أمي، كانت رائحة فئران. ولربما كان هذا الخلاف هو سبب اختلال حاسة الشم عندي لسنوات طويلة، لم أكن قادراً خلالها على التمييز بين شذى البنفسج ورائحة الزعفران، أو بين رائحة البصل وبخار المناشِق.

بالإضافة إلى ذلك، أتذكَّر شيئين أساسيين، مرتبطين بذلك البيت: الأول هو حديقة كابورُّو والآخر هو ملعب كرة القدم لفريق ليتو، والذي كان يقع على بعد ثلاث بناياتٍ. في ذلك الوقت، كانت حديقة كابورُّو كأنها مسرح لفيلم عصابات، بصخور اصطناعية، ومغارات وطرقٍ صغيرةٍ ملتويةٍ، تكسوها الأعشاب، حقاً كان المكان رائعاً! ولم يكن يُسمَح لي أن أذهب هناك وحدي، ولكن، كنت أستطيع أن أفعل ذلك برفقة أبناء خالتي أو ابن جيرانٍ لنا، كان من نفس سنِّي. ولم يكن يوجد أحد في الحديقة غالباً، وبالتالي، فقد كانت تتحول إلى ميدان عمليات بالنسبة إلينا. أحياناً، عندما كنا نجُول بتلك المتاهات، كنا نلتقي بأحد المتشرِّدين، الذي يكون ثمِلاً، أو نائماً فقط، ولكنهم كانوا مسالمين، وكانوا قد ألِفوا مداهماتِنا.

كان بيننا وبينهم تعايشٌ في ذلك المشهد الذي يشبه سطح القمر، ووجودهم كان يضفي على المكان نوعاً من الخطر على ألعابنا (مع أننا كنا متأكدين من أننا لا نتعرض لأي خطر)، والتي كانت غالباً معارك ضارية، جسماً لجسمٍ، بين فريقين أو بالأحرى بين عصابتين: الأولى تشمل ابن خالتي دانييل وابن الجيران والثانية تشملني أنا وابن خالتي فرناندو. أحياناً، كان يشارك أطفالٌ آخرون من الحيِّ، ولكن، في جميع الأحوال، كنا نحن الزعماء. (لا يجب أن ننسى أنه إذا كان دانييل يستقي أفكاره من «كونان دويل»، فإن فرناندو ونوربيرتو وأنا كنا قد أتقنَّا القرصنة بمدرسة «ساندوكان».) ونظراً لحالتي الصحية فقد منُعتُ من ممارسة بعض الألعاب المرهقة إذ كنت أعرق بغزارةٍ، مما كان يستدعي اتخاذ إجراءاتٍ احتياطيةٍ قبل الرجوع إلى البيت. وبما أننا قبل المعركة كنا نترك قمصاننا على الصخور، فعندما كنا ننتهي من القتال، كنا نغتسل عند نافورة، كان ماؤها المخضرُّ مثيراً للرِّيبة، ونتشمس، ونعود بعد ذلك لارتداء القمصان التي لا تحمل أي علامة من علامات المعارك التي خُضناها. وعندما نرجع إلى بيوتنا مزهوِّين وشعورنا ممشوطة، كانت أمي تسألني: «أنت لم تركض، أليس كذلك؟». ولتأكيد ردي بالنفي، كان أحد أبناء خالتي يقول مؤكِّداً: «لا يا خالتي، بينما كنا نلعب، كان كلاوديو جالساً على دكةٍ يتشمَّس».

المنطاد والداندي

وإذا كانت لحديقة كابورُّو جاذبية خاصة بالنسبة إلينا، فإن الشاطئ المجاور، في المقابل، كان مُنفِراً بالأحرى. حيث الرمل القليل، القذر دائماً، والمليء بالأزبال والزجاجات الفارغة، والذي كان يزداد قذارةً، مع كل موجةٍ، تأتي بأزبالٍ ونفاياتٍ أخرى، ربما مصدرها مختلف المراكب الراسية في الشرم.

أما شاطئ كابورُّو، الذي كان عادةً محتقَراً من الجميع، فلم يمتلئ سوى مرةٍ واحدةٍ، بالناس والدراجات. حدث ذلك يوم جاء المنطاد، «الغراف زيبيلين». تلك السجقة الفضية، الثابتة في الفضاء، كانت بالنسبة للكبار جميعاً أعجوبةً تكاد تنتمي إلى عالم السِّحر. أما بالنسبة إلينا فكانت شيئاً عادياً. بل أكثر من ذلك: كان ذهول الكبار بالنسبة إلينا غباءً. ورؤيتهم جميعاً وهم فاغرون أفواههم، ينظرون إلى الأعلى، أثارت فينا نوبةً من الضحك، سرعان ما تحوَّلت إلى «قهقهة الجيل». وأحس الآباء والأعمام والأخوال والأجداد بإهانةٍ كبيرةٍ، بسبب ضحكنا عليهم، فانهالت الصفعات والقرصات على أجسامنا الغضَّة. وكانت تلك مظلمةٌ تاريخيةٌ لن ننساها أبداً!

إلا أن المنطاد – الغراف زيبيلين – كان سبباً غير مباشرٍ في حدوث تحوُّل هام في حياتنا. فلم يستغرق اهتمامنا بالمنطاد الأفطس التفه سوى عشر دقائق بالضبط. حيث بدأنا نتثاءب، وأخذنا ننسحب، دون أن نعرف بعد إلى أين نوجِّه تطلُّعاتِنا. الكبار لا يزالون فاغرين أفواههم، مأخوذين بذلك الشيء القبيح المغلق بإحكامٍ والمستقرِّ في الفضاء المفتوح. وفجأة أدركنا أننا في ذلك اليوم لا وجود لنا، أننا على هامش العالم، على الأقل، ذلك العالم الذي من شأنه أن يندهش. ولهذا عندما قال ابن خالتي دانييل: «نحن أحرار!»، عرفنا جميعاً أنه تحوّل ليس فقط إلى ناطقٍ باسمنا، بل أيضاً إلى زعيمنا.

أخذنا نتراجع نحو الحديقة، من سُبلٍ مختلفةٍ، دون استعجالٍ ودون أن نُلفِت نظر أحدٍ، حتى لا يفطن أحد هؤلاء الكبار الذاهلين من افتتانه، ويُطلِق صفارة الإنذار. لم نكن بحاجةٍ إلى الاتفاق على مكان لقائنا، فنحن نعرف أنه علينا أن نلتقي عند فُرجةٍ ضيقةٍ بين الصخور، حيث تلتقي ثلاثة أو أربعة طرقٍ صغيرةٍ، كانت تمثِّل المنطقة المحايدة لألعابنا ومعاركنا وتحدِّياتنا. هناك التقينا إذن، وهذه المرة لعب المكان دور قاعة المداولات.

تلك اللامبالاة العرضية من طرف الكبار، زيادةً على الحرِّية الأكيدة التي نتمتع بها منذ نصف ساعة، وهي حريةٌ لم نطلبها لكن، وجدناها فجأة، كل ذلك فرض علينا إعادة تنظيمٍ حاسمة. لم نكن

نرغب في اللعب ولا في تنظيم معارك كاذبة تجعلنا نتصبّب عرقاً. كان الأمر كما لو أن أحدهم جرّدنا من زيّ البراءة وتركنا عراة أمام التزامٍ جديدٍ مجهول.

وفي واقع الأمر، كان القدر، يخبّئ لنا في ذلك اليوم اختباراً للمسؤولية التي جُعِلت حديثاً على عاتقنا. بدأنا نخطو بصمت، في أحد السُّبل المؤدية إلى المغارات، ونحن غارقون في التفكير، لدرجة أننا كدنا نتعثر بجسد رأيناه فجأة ممدوداً أمامنا. الصُفرة التي علت الوجه وبعض الصلابة في أعضاء الجسم لم يتركا مجالاً للشك. ولم نكن بحاجة إلى استدعاء طبيبٍ شرعيٍّ لندرك أن الرجل ميِّت.

وقال ابن خالتي: «انظروا، إنه داندي[1]». هذا هو الاسم الذي كان يطلقه على نفسه متشرِّدٌ معروفٌ، وهو عميد الحديقة، الذي كان عادة يجعل من المغارات حجرة نومه المعتادة. ولم يكن اللقب بالسخافة التي يمكن أن يبدو عليها لأول وهلةٍ. ذلك أن المتشرِّد، رغم حذائه الممزّق وسرواله الرّث وقميصه القذِر ومعطفه الذي أضحى خرِقاً، لم نره قط دون ربطة عنق (وكان له اثنتان: واحدة بخطوط سوداء وحمراء وثانية زرقاء عليها حداوي بُنِّية.) وقال دانييل: «صحيح، إنه داندي». واقترب ابن جيراننا نوربيرتو من جثة المتشرد، ولكن دانييل أوقفه قائلاً: «لا تلمسه، ألا ترى أنهم

(1) الداندي هو الشخص المتأنّق.

إذا عثروا على بصماتنا سيتّهموننا بارتكاب الجريمة؟» وتراجع نوربيرتو طائعاً، ليس فقط اعترافاً منه بأن دانييل هو الآن الزعيم، وإنما اعترافاً كذلك بثقافته البوليسية، التي حصل عليها، كما نعرف جميعاً، لتعامله مع شيرلوك هولمس. وكان هذا يؤكّد أيضاً المسافة الملحوظة الموجودة بين دانييل وبقية أفراد الجماعة. فبينما نحن ما نزال في عالم إيدموندو دي أميسيس أو سالغاري،كان هو يجوب عالم كونان دويل، بِدقّة. وقال دانييل: «لا تنسوا الساعة التي عثرنا فيها عليه، الثالثة وعشر دقائق». ثم تناول جريدةً تركها أحدهم فوق كومة حجارةٍ ووضعها على جسم الداندي وضغط بحذائه عدة مراتٍ. وفي المرة الأخيرة ضغط بقوة أشد، فبدت لنا بقعة من الدم، كانت قد جفّت وانتشرت إلى حدٍّ كبيرٍ. وباستعمال الآلية ذاتها، رفع القميص القذِر بعض الشيء، ليكشف عن جرحٍ بليغٍ أحدثته، على ما يبدو، أداةٌ حادةٌ. أمام ذاك المنظر الفظيع، أحسستُ أن عينيَّ تغوصان في الظلام وأنني على وشك أن أفقد الوعي، ولكنني بذلت مجهوداً جبّاراً للتغلب على ضعفي وتمكّنت من استرجاع قواي إلى حدٍّ ما، ومن التفوّه بجملةٍ جديرةٍ بالذّكر كهذه: «والمِمْطر؟» وجّه إلي دانييل نظرة كنظرات الازدراء المشوبة بالشفقة، التي كان يوجهها عادةً هولمس إلى الدكتور واتسن ولم يقل سوى: «المِمْطر؟ لا شك أن القاتل أخذه». كانت هذه الجملة فوق احتمالي. بمجرّد وصول

كلمة «قاتل» إلى مسامعي، أحسست أنني أغيب عن الوعي، وهذه المرة، غبت فعلاً. ثم عندما أخذت أعود إلى رشدي، أحسست أن فرناندو يمسح وجهي بمنديل مبلَّل وتساءلت بأي سائل يكون قد بلَّله، ولكنني في تلك اللحظة التقيت بنظرة دانييل، بين التحذيرية والهازئة، وهو يقول لي: «آه، ما أضعفك!» حينئذٍ شعرت أن الدم يغزو وجهي على شكل موجاتٍ وهنا عدت إلى رشدي واسترجعت قواي تماماً.

طبعاً حلفنا أن نحفظ سر «اكتشافنا المروع» (هكذا نعته دانييل، بصفته متخصِّصاً مبتدئاً في علم الإجرام، والذي يتابع بحماسٍ، الأحداث الإجرامية في الجرائد اليومية).

بينما كان الكبار منشغلين ومفتونين بمشاهدة المنطاد رجعنا نحن إلى الشاطئ من طرقٍ مختصرةٍ مختلفة، ومكثنا هناك متصنِّعين إعجاباً لم نكن نحس به البتة، ولكننا خلقنا بسلوكنا هذا دليلاً جماعياً على أننا لم نكن حاضرين في مكان الجريمة وقت حدوثها، وهذا يقطع أية صلة بيننا وبين تلك الجثة التي ظلت هناك في المكان الذي كان نقطة لقاءاتنا. «كان» لأننا – ولأسباب واضحة – لم نعد إلى الالتقاء هنالك أبداً.

مع حلول المساء تفرَّقت جموع الفضوليين. حينئذ فقط تذكَّر الكبار أننا موجودون. أتذكَّر أن أمي جعلت ذراعها على كتفي

وقالت وهي ما تزال متأثرة: «رائع! أعجبك؟» فأبديتُ أنا ابتهاجي بالمنطاد؟ وهكذا شرعنا في العودة إلى البيت، بطريقةٍ متأنيةٍ ورتيبةٍ، كأن شيئاً لم يكن، كما لو أنه، اعتباراً من هذه اللحظة، لم تكن هناك أية جثة في حياتنا.

والغريب في الأمر أن الصحافة لم تتكلم مطلقاً عن اغتيال الداندي. فقد كنا نقرأ الجرائد كل يوم ونستمع إلى الأخبار في الراديو، منتظرين دائماً العنوان المخيف: «جريمة قتل بحديقة كابورُّو». والعناوين الصغيرة التي لا بدَّ منها: « يحوم الشك حول مجموعةٍ من القاصرين. وسط الاضطراب الذي أحدثه ظهور المنطاد، قُتِل متشرِّد يشتهر بلقب الداندي، عند المساء». بعد مرور عشرة أيام على اكتشافنا، اجتمعنا نحن الأربعة بالفناء الخلفي لبيتنا وقرَّرنا أن نضع حدّاً لحالة القلق تلك التي كنا نعيشها. كان علينا أن نعود إلى الحديقة لنعرف ماذا جرى لجثة الداندي. وقد اتفقنا جميعاً على أنه من الطيش أن نذهب إلى الحديقة كلنا. واحد منا فقط هو الذي يجب أن يذهب إلى «فُرجة الغابة» ليقوم بمعاينة المكان، وكان من الطبيعي أن ندع هذا الاختيار للحظ. «القرار بيد الله!»، قال جاري نوربيرتو، الذي كان يحضر الدروس الدينية يوميّاً، وهو التلميذ المفضَّل للأب ريكاردو. كان طموحه الأول في الحياة هو أن يصبح خادم قدَّاس لذلك القسيس. أما نحن فكانت لدينا

طموحات أخرى في ذلك الوقت. كما هو متوقَّع، كان دانييل يريد أن يصبح مُخبراً، وفرناندو ميكانيكياً (عندما كان صغيراً كان يقول «ماكانيادور»، لكن الكلمة خطأ) وأنا كنت أريد أن أصبح حارس مرمى للمنتخب الوطني، أي كابن أخ مزعومٍ لمازالي. وفعلاً، لقد كان الله هو المقرِّر، كما قال نوربيرتو. قرَّر اختياري أنا. وفي ذلك اليوم بالذات قرَّرت أنا أيضاً أن أكون ملحداً. ومازلت كذلك إلى يومنا هذا. كانت صدمةً قاسيةً. لا أدري ماذا كان سيحدث لو أن القرعة اختارت نوربيرتو أو فرناندو أو دانييل. ربما كان ذلك ليعزِّز إيماني بالرب ولكنت اليوم خورياً أو على الأقل أسقفاً. ولكن ذلك لم يحدث، فحملتُ على عاتقي إلحادي ومعاينة المكان.

في اليوم التالي، قصدتُ مكان الخطر، وظلَّ الثلاثة الآخرون عند ملتقى شارع كابورو وأُوساريس، في انتظار أخباري. توجَّهت إلى «مكان الحادث» (كما أسماه دانييل) بكل ما أملك من شجاعة، والتي في الواقع، لم تكن كبيرة. إذ كنت أسير ببطء، فذلك ليس لعدم رغبتي، وإنما لأن رجليَّ كانتا ترتجفان، رغم إرادة المحارب التي أملكها. كان الارتجاف يتوقف فقط عندما كنت أصعد أو أنزل أدراجاً، ولكن ما إن أعود إلى السير، حتى تسيطر القشعريرة عليَّ من جديد. أتذكر أنه كان صباحاً خريفياً بارداً، ولكنني كنت أتصبَّب عرقاً، كأننا في شهر يناير/ كانون.

أخيراً وصلت إلى «فُرجة الغابة». في البداية، لم أصدِّق عيني: لا أثر لجثة الداندي. الغريب في الأمر أن عدم وجودها هدَّأ من روعي. وتوقَّفت القشعريرة بشكل سحري. حتى أنني وجدت الشجاعة لكي أقطع الطرقات الصغيرة المؤدية إلى فُرجة الغابة، بل أكثر من ذلك: في محاولةٍ متبجِّحةٍ لعرض شجاعةٍ غير معهودة، أطللت برأسي داخل المغارة التي كانت ملجأ الداندي لأعوام. وهناك أيضاً لم أجد أي أثرٍ للمتشرِّد، باستثناء زجاجةٍ (فارغة) للكحول الطبي القابل للاشتعال.

عدت إليهم مختالاً، بطبيعة الحال، وعندما رأوني هبُّوا للقائي متلهِّفين. تركتهم يتعذَّبون لبضع دقائق، ولكنَّ وجوههم المذعورة جعلتني أشفق عليهم. «المغدور ليس هناك»، استعملتُ المصطلح لكي يُدرِكوا أن لي مطالعاتي أنا أيضاً. وقع عليهم الخبر كدلوٍ من الماء البارد. سألني دانييل «فتَّشتَ جيداً؟» فأعدتُ إليه نفس النظرة بين التحذيرية والمتهكِّمة التي وجَّهها إلي، حين فقدت وعيي، ثم أضفت: «فتشت في كل مكان. حتى أنني دخلت مغارة الداندي». سأل نوربيرتو بنبرة إعجابٍ: «دخلت المغارة؟» أكَّدتُ قائلاً «طبعاً»، دون إعطاء أهمية بالغة لهذه الجرأة الكبيرة التي أبديتها. «ولم أجد هناك غير هذه الزجاجة». انتقلتِ الزجاجة من يدٍ إلى أخرى قبل أن تعود إلى يدي، كما هو منطقي. وتحوَّلتُ (دون أن يقرر ذلك

أحد تقريراً صريحاً) إلى المسؤول الرسمي عنها. أمسكناها كلنا من العنق مستعملين منديلي، إذ من المحتمل أن تكون عليها بصمات ليست لنا أو بصمات الداندي نفسه. ولكن كل هذه الاحتياطات لم تُجْدِ نفعاً. ولم يقتصر الأمر على عدم اكتشاف هوية المجرم، بل إن الصحافة حتى لم تقل أي شيءٍ عن الجريمة. طرحنا مختلف الاحتمالات في بضعة لقاءاتٍ لنا. أكان ميتاً فعلاً عندما عثرنا عليه يوم ظهور المنطاد؟ جوابنا الجماعي كان هو أن ذلك الشيء كان جثةً بلا أدنى شك. ثم إنه إذا لم يكن ميتاً، لماذا لم يره أحد منا بعد ذلك الحين في الأماكن التي يرتادها عادة؟ ولكن إذا كان جثةً، من الذي حملها من هناك؟ لماذا لم تكتب الصحف أي شيء عن تلك الجريمة (أو أي شيء كانت)؟ وهناك عنصرٌ إضافيٌّ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار وهو أنه، بعد ذلك اليوم الاحتفالي الكئيب، اختفى من الحيّ كلُّ المتشرِّدين. لماذا اختفوا؟ هل علموا بالجريمة فأصابهم الخوف؟ الشيء الوحيد الذي كان مؤكَّدا هو أننا نحن الأربعة كنا فعلاً خائفين، وباستثناء ذلك اليوم الذي قمت فيه بمُعاينة المكان، لم يرجع أي منا بعد ذلك إلى «فُرجة الغابة». وبعد بضعة أشهرٍ، توقفنا عن الحديث عن ذلك الموضوع الذي كان يثيرنا، ويغمرنا بالكآبة، في الوقت ذاته. ومع ذلك ظلت سحنة الداندي تظهر لي في كوابيسي، لعدة أشهر، إلى أن انسحبت، في النهاية، من تلك

المساحة أيضاً.

بعد ذلك بعامين أو ثلاثة أعوام، سمعت في الراديو، ولمرّةٍ وحيدةٍ، تانغو يشتمل على هذا المقطع:

«وأحياناً عندما يصيبني الملل / أتذكر الداندي، ذاك المتشرِّد / الذي «تبرَّز ناراً» هناك في كابورُّو / ذات أربعاء وخيم». سجَّلتُ تلك الأبيات بسرعة حتى لا أنساها، ولكنني أحسست، مرةً أخرى، أن الخوف يعتريني، لم يكن بقدر خوف ذلك الخريف، بل جذوة منه فقط. لكن، ربما لذلك لم أتَّصِل بالإذاعة لأسأل عن عنوان التانغو وعن اسم المغني. لم أتكلم مع أحد عن ذلك ولم أسمع تلك الأغنية مرة أخرى، وهي أغنية لم تكن جيدة، على كل حال. في اليوم التالي، فتَّشت في إحدى المفكِّرات التي يمكن أن نعرف في جداولها أي يوم من الأسبوع يوافق يوماً ما من الماضي. واكتشفتُ أن يوم المنطاد كان يوم أربعاء! ومع ذلك، فإن كاتب كلمات التانغو لم يوضِّح أن الأمر يتعلَّق بجريمة: «تبرَّز ناراً» تعني باللهجة اللونفاردية[2] «قضى، مات» ولكن قد يكون موتاً طبيعياً. موت طبيعي مع ذلك الجرح المفتوح في جنبه وكل تلك الدماء التي كانت تسيل؟ لقد كانت تلك الحادثة جديرةً بأن تكون موضوعاً لمقالةٍ كاملة حول «التانغو

(2) لهجة اللصوص والمهمشين بمدينة بوينوس آيريس الأرجنتينية، انتشرت فيما بعد، في الضواحي وباقي البلد.

والتضليل». اللهم إلا إذا كان كاتب الأغنية هو المجرم نفسه (ولِمَ لا؟) بينما تلك الكلمات ذريعته لإثبات عدم وجوده في مكان الجريمة عند حدوثها، ونوع من التعتيم المقصود على حالة الوفاة تلك. أعلم أن دانييل كان سيقول في هذه الحالة: «كما هو بديهي، المجرم يرجع عادةً إلى مكان جريمته، وهذا التانغو (الأمر واضح جداً) مجرَّد رجوع» ولكنني لم أجرؤ على أن أحدِّث أحداً بذلك الشأن، وحتى لو أنني امتلكت تلك الشجاعة، لما كان الأمر ممكناً، لأن دانييل، في تلك السنة بالذات، سيسافر مع أبويه إلى الولايات المتحدة.

مزايا ومساوئ الجرأة

كما سبق وقلت، في كابورُّو، كان هناك مسرحٌ آخر رئيسي بالنسبة إليّ: ملعب كرة القدم لفريق ليتو. كان فريقاً متواضعاً (وعلى ما أعتقد، كان ينتمي إلى درجةٍ كان يطلق عليها آنذاك اسم «الوسطى»)، لكنه كان يحظى بمساندة كل الحي. ومن جهةٍ أخرى، أحياناً كثيرة، كان يتنازل عن الملعب، دون مقابل، لفِرَقٍ أخرى أكثر تواضعاً منه، لم تكن تتوفر حتى على ملعبٍ لها. وفي هذه الحالات، (كانت المقابلات تجري عادةً صباح يوم الأحد) كانت المشاهدة مجانية. كنا أحياناً نرافق أبي، الذي كان مشجعاً لفريق ديفينسور، لكن حماسه كان فاتراً بحيث لم يكن كافياً، على الإطلاق، لجعله ينتقل حتى ملعب باركي رودو. أما ملعب ليتو فكان هناك قريباً وأبي كان يستمتع باللعب البليد لتلك الفِرَق الصغيرة التي كانت تتقابل، في صباحات الأحد المشمسة.

مازلت أتذكر حارس مرمى كان يقترب من سن المراهقة، وكان يتمتع بخصلةٍ غريبةٍ. عندما كانت تأتيه الكرة من المهاجمين الخصوم، قويةً وجانبية، كان يوقفها بحركاتٍ بهلوانيةٍ أو يبعدها بقبضتيه،

ومن ثم يفوز بتصفيقاتٍ حارَّةٍ، من طرف الأربعين متفرِّجاً ولكن، عندما كانت تأتيه الكرة من الأعلى، كان يسمح لنفسه بِشدِّ قميصه إلى الأمام، ليستقبل الكرة في جيب القميص المُرتجَل. وكان هذا العرض بالنسبة إليه، قمة السعادة، لأنه كان بذلك يعرِّض الفريق الخصم إلى السخرية، بالإضافة إلى أن المتفرجين كانوا يستمتعون به كثيراً. ولكن ذات مرةٍ، لم تجْرِ الأمور كما كان يشتهي. ربما لأن الكرة تلك المرة ارتفعت أكثر من المعهود، وبالتالي نزلت بقوةٍ غير متوقَّعةٍ، وعندما مدَّ الحارس الصغير قميصه كالعادة لاستقبال الكرة، غلبته قوتها، دون أن يستطيع صدَّها، بحيث غلبت ذلك التبجُّح وتسرَّبت بين رجليه وتدحرجت بسهولةٍ ويسرٍ على العشب، حتى تجاوزت الخط، لتسجِّل الهدف.

واحتفى مهاجمو الفريق الخصم بذلك الفوز احتفاء كبيراً قافزين مقهقهين. كان بعضهم يضغط بيديه على بطنه من شدة الضحك. وانسحب زملاء الحارس في صمتٍ وخجلٍ إلى وسط الملعب. لم يقترب أي واحدٍ منهم للتخفيف عن الحارس. تركوه وحيداً. وأمسكني أبي من ذراعي وقال «انظر»، وهو يشير إلى المرمى المهزوم. فنظرت ورأيت هناك الفتى المسكين يبكي بكاءً يائساً متكئاً على عمودٍ. لم يكن في استطاعتنا دخول الملعب وتشجيعه والتخفيف عنه. ثم إن المباراة كانت قد استؤنِفت. ومسح هو

دموعه بقبضته وعاد من جديدٍ إلى مكانه. ولكن كل تلك البسالة والرغبة في جلب الأنظار، كانت قد تبخرت. ففي ذلك الصباح سجَّل الفريق الخصم في مرماه ثلاثة أهدافٍ أخرى: واحد بضربة مباشرة من الزاوية وآخر بضربة جزاءٍ والأخير سجَّله لاعب هجوم، بعد أن راوغ اللاعبين بالكرة المشؤومة إلى أن سدَّدها وسط المرمى. بطبيعة الحال، كانت تلك آخر مقابلة يشارك فيها الحارس الصغير. كان اللاعب الذي عوَّضه في الأحد التالي متهوراً إلى حدٍّ ما، ولكن ليس لدرجة ألاَّ يدرك أن استقبال الكرة في مقدمة القميص، يُمنَع منعاً باتّاً.

فضاء خاص بي

من بين جميع البيوت التي أقمنا بها حتى ذلك الحين، كان بيت كابورُّو أول مكانٍ يعني بالنسبة إلي «عالماً»، فضاءً خاصاً. إذ أني قبل ذلك لم أكن قد حظيت بغرفةٍ خاصةٍ بي. لقد كانت أعلى من الغرف الأخرى ببضع درجات (ولكنها، مع ذلك، لم تكن العلِّية)، وكانت بها نافذةٌ تطلُّ على الفناء الخلفي لجيراننا (نوربيرتو ووالديه). هناك، كانت عدة أشجارٍ بطيورها، وكانت الشجرة الأقرب إلى نافذتي تينة تمنحني في فصل الصيف ظلها وفاكهتها، التي كنت آكلها خفيةً وتسببت لي في الإسهال، أكثر من مرة. ولم أكن أسرق شيئاً في الواقع لأن نوربيرتو (وليس والداه، طبعاً) كان قد سمح لي بأن آكل كل التين الذي أريد. والسبب الحقيقي لكل ذلك الكرم هو أن صديقي كان يشمئز من التين اشمئزازاً عميقاً. ثم إن تلك الشجرة العملاقة والمضيافة كانت جسرنا: عن طريق أغصانها الظليلة، كنت ألتحق أنا بفناء نوربيرتو أو يدخل هو إلى غرفتي. هذا زيادةً على المرات الكثيرة التي كنا نظل فيها على الأغصان. وكان في الشجرة غصنان تتفرّع عنهما أغصانٌ غليظةٌ، جعلها الرّب هناك (حسب تفسير

الكاهن المبتدئ نوربيرتو، وليس تفسيري) على مقاسنا. هنالك كنا نتكلم عن العالم وما جاوره. خاصةً عن كرة القدم. كنا نحن الاثنين (ومازالنا، حذارِ!) من مشجِّعي فريق ناسيونال، بِخلاف دانييل الذي كان يشجِّع بينيارول وفرناندو، فريقَ وانديريرس وبالتالي، بالنسبة للثلاثة، كان خصماً غير ذي بال. ولم تكن كرة القدم، رغم هيمنتها، الموضوع الوحيد الذي يشغلنا، كنا كذلك نتبادل الانطباعات حول آبائنا، الذين نشعر نحوهم بمزيج من التبجيل والامتعاض. هذا الأخير، بسبب الحدود التي كانوا يفرضونها على تحركاتنا ولعبنا وكلامنا، رغم أننا كنا نخترق تلك الحدود عن قصدٍ، وبشكلٍ شبه يومي، مستحقين، عندما كان يُكتَشف أمرنا، الصفعات التي لا مفر منها، من أمهاتنا (صفعات الآباء لم نكن ندركها إلا في ظروفٍ خطيرةٍ للغاية). وبطبيعة الحال، في الأيام الأخيرة، لم نكن نتعب من الكلام عن الداندي، عن موته (لم نكن نجرؤ، حتى فيما بيننا، على تسمية الحدث بِـ «جريمة قتل») واختفاء الجثة الذي مازال يكتنفه الغموض. فذلك هو «جسم الجريمة» الحقيقي! كما قال ذات مرة نوربيرتو، مُبدياً جرأةً فاجأتني، بصراحة. وفي أحيانٍ أخرى (ولكن نادراً جداً)، كنا نتحدث عن الدراسة، خاصة عن المواضيع التي كانت تبدو لنا مستعصية الفهم، مثل معادلات الدرجة الثالثة.

أريد أن أوضح أنه، في هذه المرحلة، كنت قد توقفتُ عن تلقي

الدروس من محبوبتي أنطونيا بيكو، وكان يدرِّسني سيدٌ اسمه أومبيرتو فوسكو، الذي يملك رِجلين مشعرتين دقيقتين للغاية (لقد كان يأتي إلى البيت بسروالٍ طويلٍ، ولكنني رأيته مرةً في بوسيتوس بسروالٍ قصير)، واللتين لا يمكنهما، بأي حال، منافسة رِجلي معلِّمتي، التي عادت في الآونة الأخيرة إلى الظهور في أحلامي وتهيؤاتي. ويجب أن أوضح هنا أن أنطونيا بيكو توقفت عن تدريسي، ليس لأننا أقَلناها، فما كنت أنا لأسمح بذلك، بل لأن ثمة كارثة حلَّت بها: لقد تزوَّجَت. سمعت أمي تقول أن خطيبها «شابٌّ وسيم»، ولكن أنطونيا زارتنا بعد ذلك بأسابيع وصحبَته معها لكي نتعرف عليه، وبصراحة، ما رأيت إلا فتىً نحيفاً غير جذابٍ، على الإطلاق. ولاحظت أنطونيا أني أرمقهُ بنظرات شزراء، ولتلطيف الجو، قالت للذي أصبح زوجها الآن، وهي تضع يدها على كتفي: «أميلكَر، اسمع، هذا أفضل تلميذٍ كان عندي». (وفوق ذلك، اسمه أميلكر! شيءٌ لا يطاق!). وآنذاك تمَّ استدعاء السيد فوسكو، الذي كُلِّف بمهمة إعدادي للالتحاق بالتعليم الثانوي.

لقد كان البيت يُرى، ويُلمس أيضاً. ومع أن التيار الكهربائي لم يكن ينقطع كثيراً، كما سيحدث في الأعوام اللاحقة، إلا أن الحي أحياناً كان يغرق في ظلامٍ دامسٍ. وكان والداي يستعملان المصباح اليدوي، لكنني كنت أفضل أن أتلمَّس طريقي في الظلام، مستدلاً

فقط بيديَّ أو قدميَّ الحافيتين. أن ألمس البيت، أن أتحسّس جدرانه وأبوابه ونوافذه ومزاليجه، أن أعُدَّ درجاته وأفتح دواليبه، كل ذلك كان طريقتي في امتلاكه. كان بالنسبة لوالدَيَّ مجرد بيتٍ نستأجره، ولكني لم أكن أميز جيداً ذلك الفرق بين الاستئجار والامتلاك، ولهذا كان بيت كابورو بالنسبة إلي «بيتي».

كانت له، بالإضافة إلى ذلك، رائحةٌ خاصةٌ. ولا أعني رائحة المطبخ التي تتغير طبعاً باختلاف اليخنات وأنواع الشواء والطبخات والصَّلصات التي كانت تعدِّها أمي الخبيرة. لا، الرائحة التي أعنيها هي رائحة البيت في حدِّ ذاته، تلك التي كانت تنبعث من الزليج الأبيض والأسود للفناء الداخلي أو من درجات الرخام للدهليز أو من ألواح الأرضية أو من بلل أحد الحيطان أو الرائحة المنبعثة من شجرة التين عندما أترك النافذة مفتوحةً. كل تلك الروائح كانت تشكِّل رائحةً مركبَّةً، هي الرائحة التي تملأ كل البيت. عندما كنت أعود من الشارع وأفتح الباب، كان البيت يستقبلني برائحته الخاصة، وبالنسبة إلي، كان الأمر بمثابة استرجاع وطن.

أحلام ملونة

إن أهمّ شخصية عرفها كلاوديو في حي كابورّو (باستثناء الداندي) كانت هي شخصية الضَّرير، ماطيو ريكارطي. فقد كان عمره ثلاثةً وعشرين عاماً، وكان يدور عنه الحديث بكثرةٍ، في كل الحي. الذي يعتبره مجتهداً، ذكياً، لطيفاً، خفيف الروح، رغم إعاقته. وكانت له أخت تصغره بعامين أو ثلاثة، التي يدور عنها الحديث هي الأخرى، ولكن لأسبابٍ مختلفةٍ. فماريا إيوخينيا كانت ذات جمالٍ فريدٍ، لم تكن تشبه أية ممثلةٍ أو عارضة أزياءٍ مشهورة. وكانت قد فازت قبل أربعة أعوامٍ بلقب أجمل امرأةٍ في سوريانو، ولكنها رفضت أن تتقدم من جديدٍ إلى هذه المسابقات، باعتبارها في منتهى التفاهة. كان الجميع واثقين من أنها لو تقدَّمت لفازت بلقب ملكة جمال الأوروغواي والعالم والكون، وحتى المجرّة، إذا ما وُجِد هذا اللقب. كانت انحناءات جسمها رائعةً وقوامها مثالياً، ووجهها كان من الممكن أن يختاره الرسام فليبو ليبي، لإحدى عذراواته. لقد كان جمالها مُربِكاً لدرجة أن أحداً من فتيان كابورّوُ لم يجرؤ على مغازلتها. وهذا لم يمنعهم، بعد ذلك ببضعة أعوامٍ، عندما تزوَّجت

ماريا إيوخينيا من «أجنبي» (من مونتيفيديو، لكن ليس من كابورو، وإنما من كوردون) من أن يعتبروها أقلَّ من خائنةٍ بقليل. ولكن هذا حدث بعد ذلك بزمنٍ طويل. عندما تعرَّف كلاوديو على الأخوين ريكارطي، كان هو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، ولم يكن أحد يرى بأساً في أن تداعب ماريا إيوخينيا شعره عندما يعود إلى البيت أو عندما تقبّله على وجنتيه، على الطريقة الأوروبية. الشيء الذي يستغلُّه نوربيرتو وفرناندو ودانييل ليسخروا منه، وإن كان كلُّ ذلك حسداً، وينادوه متهكِّمين بـ «خطيب ميس سوريانو». وكان هو لا يبالي بهم ويكتفي بقول: «ليتني كنت خطيبها».

لقد كانت أورورا، أم كلاوديو، تُرسِل أحياناً إلى عائلة ريكارطي إحدى الحلويات الخاصة أو كعكة تفاح، وغالباً ما كانت تبعثها مع كلاوديو، الذي بعد أن يتبادل الابتسامات والقبلات المعتادة مع ماريا إيوخينيا، كان يقعد ليتحدث مع ماطيو. كان لذلك الضَّرير جاذبية خاصة، بالنسبة لكلاوديو. وكان يذهله أن يتخيل كيف يتمكن ماطيو من التواصل مع العالم. كان يقوم باستطلاعاته ببراءةٍ كبيرة تجعل الأعمى يقبل ببساطة، أسئلة لو أنها صدرت عن الكبار لضايقته أو لرأى فيها ازدراء.

وفي أحد تلك الأحاديث، سأله الفتى إذا ما كان ضريراً منذ الولادة، فأوضح له ماطيو أنه قد أصيب منذ العاشرة من عمره

بانفصال في شبكية العين، لا يمكن علاجه. فقال له كلاوديو متحمّساً: «إذن أنت كنت ترى الألوان من قبل». «طبعاً». «وهل تساعدك هذه الذكرى على تخيل ما يحيط بك؟» «نعم ولا. حتى الذكريات تنمحي مع مرور الأيام. أحياناً أتذكر ذكرى اللون، لا اللون نفسه. أتتذكر أنت كل ما جرى عندما كان عمرك ست سنين؟ ألا يحدث لك أحياناً أن تتذكر شيئاً، لا يكون ذكرى نابعةً مباشرةً من ذاكرتك، بل لأن الحدث رُوي على مسامعك مراراً، من أبيك أو أمك، على مرِّ السنين؟ في النهاية، تتقمص أنت دور البطل في تلك القصة المروية، ولكن، ليس هو نفسه ذلك الدور الرئيسي الذي لعبته ذات يوم».

هذا التفسير تجاوز قدرة استيعاب كلاوديو، بدا له مبهماً ولكن مبهراً للغاية، وسأله من جديد: «وهل تحلم أحياناً؟» «نعم، أحلم كثيراً». «وفي أحلامك، هل ترى؟» «في الواقع لا أدري هل أرى أم أظن أنني أرى». «وهل تحلم بالألوان؟» «ليس دائماً، أحياناً فقط. ما يحدث هو أنه عندما أستفيق، أدرك أن أحلامي كانت بالألوان، ولكن لا أستطيع أن أقول لك أي الألوان هو الأحمر أو الأصفر أو الأخضر. ثم إنني لا أحلم دائماً أنني أرى، أو أظن أنني أرى. غالباً ما تتدخَّل في أحلامي الحواس السليمة لدي. أعني أنني أحلم أنني ألمس أشياء، أتذوق أشياء، أسمع أشياء، أشم أشياء».

وأحياناً أخرى، كان يسأله عن كيفية تواصله مع العالم، ليس عندما يكون نائماً، وإنما في حالة اليقظة التامّة. وكان ماطيو يجيب برحابة صدر: «لا يختلف الأمر كثيراً، في هذه الحالة أيضاً، تعوِّض حواسي الأربع السليمة الحاسة الأخرى التي تنقصني، وتساعدها حتى لكأن فعاليّتها تتضاعف».

وعادةً، كان الضَّرير يطلب من كلاوديو أن يحكي له تفاصيل عن ألعابه وعن محيطه العائلي. ولكن الفتى لم يكن يفهم لماذا كان يهتم صديقه بشيءٍ روتيني، كما هي الحياة اليومية لشخصٍ قادر على أن يرى كل شيءٍ وبالتالي لا يحتاج إلى أن يتخيله، في حين أن سحر الضَّرير الحاذق يكمن في هذه النقطة بالذات. الشيء الوحيد الذي في نظره كان يدعو حقّاً للرثاء في حياة ماطيو، هو أنه لا يستطيع تأمُّل جمال أخته.

كان كلاوديو يحلم تقريباً كل ليلةٍ، ولكنه ابتداءً من ذلك الحديث الغريب مع ماطيو، بدأ يحلم بالأبيض والأسود، ولكنه كان يستسلم للأمر، فليست أفضل الأفلام دائماً هي تلك الملوَّنة.

أصحاب «غالارسا»

كان لبيت كابورُّو ألغاز وأسرار. على سبيل المثال، كنت ألاحظ أحياناً، غالباً في ساعة القيلولة، عندما يقترب أبي من أمي ويحاصرها خلسةً، بمداعباتٍ وقبلاتٍ وعناقاتٍ، كيف كانت هي، في بعض الأحيان، تبتسم وتردُّ له بعض القُبَل، ثم يُقفلان عليهما الباب ويظلان لمدة طويلة في غرفة النوم. ولكن أحياناً أخرى، عندما يبدأ أبي بملاطفتها، كانت ملامحها تصير جديةً وتقول ببساطةٍ: «اليوم لا أستطيع يا رجل. فقد جاء أصحاب غالارسا». وكانت تلك الإجابة لغزاً بالنسبة إلي، لأنني مكثت طوال الصباح بالبيت ولم أر أيَّ زائرٍ يطرق بابنا: لا من أسرة غالارسا ولا من أية أسرة أخرى. ثم إنني لم أكن أعرف أحداً بهذا الاسم. فقط بعد ذلك بأعوام، عرفت أن غالارسا كان اسم زعيمٍ شيوعي، خلال سنوات الحرب الأهلية، وحسب الأسطورة، عندما كان رجاله يمرون ببلدة من البلدات، كان لا بد أن تُراق دماءٌ كثيرةٌ. أي أن ما كانت تشير إليه أمي (بالرمز، طبعاً، نظراً لوجودي المضايق) هو أن لديها العادة الشهرية وعدم استعدادها للعلاقة الحميمة. اللغز الآخر كان بمثابة باب كمين، وكان موجوداً

بإحدى الغرف الداخلية. فذات مرةٍ سمعتُ أمي تقول أن ذلك المربع الخشبي هو مدخل للقبو. وكانت محاولة فتحه محظورةً عليّ، مع أنني لم أكن بحاجة إلى أن يمنعاني من ذلك، فالأقبية كانت دائماً تبعث في نفسي خوفاً غير منطقي، وليس أنني لم أفكر يوماً بفتحه فقط، بل إنني، عندما كنت أدخل إلى تلك الغرفة، لم أغامر يوماً بأن أطأ ذلك المربع الخشبي المُريع.

ومن بين أجمل ذكريات كابورُّو أذكر لحظات استيقاظي، حيث يتكفَّل بذلك عادةً سكَّان شجرة التين. فعندما كانت تصيح بي أمي من المطبخ لكي أذهب للإفطار، كانت تجد الطيور قد أيقظتني قبل مدةٍ غير قصيرةٍ. بعضها كان قد فقد الخوف وحتى الحذر حيث تدخل الغرفة وتقترب من سريري وهي تعرف أنني أحتفظ لها دائماً بإفطارٍ من فتات الخبز. وهناك زائرٌ آخرٌ لم أخبر أمي عنه قط، بطبيعة الحال: وهو فأرٌ في منتهى الصِّغر، حفَّارٌ صغيرٌ، كنت عندما أفتح عينيَّ أراه دائماً بجانب سريري ينتظر قِطَع الجبن، بقايا حصَّتي، وذلك حرصاً على حميةٍ خاصةٍ من أجل تعويض نقص البروتينات لديّ. ومن الواضح أننا، أنا وذلك الحفَّار الصغير، في تلك الفترة، شهدنا ارتفاعاً لا يستهان به، في نسبة البروتينات.

رحلة إلى قلب المدينة

بحكم موقعه الخاص في خريطة المدينة، كان كابورّو، أكثر منه حيّاً، حوضاً يشمل عدة أحياء، أحد طرفيه عند بداية الشارع الذي أُطلق اسمُه على الحي، أي في شارع أغراثيادا (حيث يوجد القصر الذي عاش فيه الرئيس، الدكتاتور لاحقاً، غابرييل تيرّا، وحيث كان ينعطف خط الترام رقم 22)، والآخر عند الحديقة. رغم أن نفوذه كان في الحقيقة يمتدُّ إلى أبعد من ذلك، ويكاد يصل إلى جدول ميغيليتي، إذ أن الحي في حد ذاته كان ينتهي، في الواقع، عند آخر محطةٍ للترام، وكان هذا أمراً دارجاً آنذاك. وبخلاف الحافلات، كان الترام يختصر أو يمدِّد الأحياء. فقد كان بإمكان الحافلة أن تغيِّر مسارها، فتمرّ اليوم من هنا وغداً من هناك. أما الترام، بِسككه الثابتة وذراعه الموصول بالشريط العلوي، فكانت له وجهةٌ ومسارٌ لا يتغيران. ثم إنه، بالنسبة لطفلٍ صغيرٍ مثلي، كانت رؤية السائق وهو يزيد في السرعة أو يوقف تلك الكتلة الهائلة من الحديد الصدئ شيئاً رائعاً، خاصةً عندما كان يترك مقبضاً ما يدور في الاتجاه العكسي، كما لو أنه يقوم بتلك الحركة بمحض إرادته. من جهةٍ أخرى، كانت المقاعد

المغلَّفة بقماش الكتان خشنة إلى حد ما، ولكنها كانت تبعث في النفس إحساساً بالأمان. وللترام ميزةٌ أخرى: فهو لا ينقلب أبداً، كما يحدث مع السيّارات والتاكسيّات والشّاحنات والعربات المكشوفة وحتى الحافلات، وإن كان ذلك نادراً.

نعم، لقد كانت كابورُّو مجموعةً من الأحياء، تكاد تكوِّن جمهوريةً صغيرةً. ولسبب ما كان سكانها يميلون إلى المكوث هناك، ولا يخرجون من ذلك الجو العائلي إلا لماماً، حيث كلّ زاويةٍ، كلّ دكانٍ، كلّ حانةٍ كان بمثابة غرفةٍ من غرف البيت. وربما بسبب ذلك المناخ العائلي الذي يعني الكبار والصغار على حدٍّ سواء، كان كلاوديو وشِلّة رفاقه يعيشون داخل حدود الحي. ولكنهم أحياناً كانوا يخرجون، وكان ذلك بالنسبة إليهم بمثابة سفرٍ إلى بلد أجنبي. كان كلاوديو يقوم بهذه الرحلة عادةً مع والده، وعند ذلك، كانا يظلان في وسط المدينة، طيلة المساء.

كان الأب يحب ارتياد المقاهي كثيراً. فهناك كان يلتقي بأصدقاء الماضي القريب والبعيد أيضاً. وكان أصدقاء الماضي البعيد، عادةً، أشدَّ فقراً من أصدقاء الماضي القريب. ولكن الوالد كان يفرح بهؤلاء وأولئك، يربِّت على أكتافهم ويعانقهم، وكانوا يتمازحون ويتكلمون عن أحداثٍ كانت بالنسبة لكلاوديو جديدةً تماماً. حول انتحار بروم، مثلاً، وكان أمراً حديثاً، كانوا يتكلمون بصوت

خافت، «لأنه ليس من الممكن أبداً معرفة من يجلس في الطاولة المجاورة»، ولا تكاد آراؤهم تتفق قط. كان بعضهم يقول أنه لم يكن ينبغي أن يفعل ما فعل. وكان آخرون يؤكدون أنه لم يكن أمامه مخرجٌ آخرٌ. أما روساس، وهو عاملٌ بمصنعٍ لتجميد اللحوم، فقد كان يقول بأن «المسكين اعتقد أنه بذلك، سيجعل الشعب يثور». وكان مينينديث، وهو موظف جمارك يرتاب بكل شيء، يرد عليه قائلاً: «عن أي شعبٍ تتكلم؟ هذا الشعب لا يثور من أجل أي شيءٍ ولا من أجل أي أحدٍ كان». فيقول آخر مغتاظاً: «أهاه! يظهر أن الذي ثار هو أنت». ويرد روساس: «لا تكن وقحاً، حتى أنا لا أثور من أجل أي شيءٍ كان. لذلك أقول لك هذا. وأتحدث عن علم». وفي أحيانٍ أخرى، كانت كرة القدم تكون الموضوع الرئيسي. ألباريس، وهو أكبرهم سنّاً، كان رجلاً متمرساً، وكان قد شهد تسجيل هدف بييندييبيني في مرمى الحارس الإسباني «ثامورا الجبّار»، وكان يحسُّ أنه، بذلك، قد حقّق أقصى ما يتمناه في حياته (التي قد شارفت على نهايتها، بلا شك)، كما لو كان قد شهد «سقوط باستي» في الثورة الفرنسية أو «سقوط قصر الشتاء» في الثورة الروسية.

وكان آخرون معجبين بِبيتروني، الذي كان ألباريس يقول عنه محتجّاً: «ولكن هذا حدث أمس»، منتقصاً من شأن الذكريات الحديثة العهد. «أما هدف بييندييبيني في مرمى ثامورا فهو جزء من تاريخ

هذا الوطن يا صاحبي، ولا يقلُّ أهميةً عن انتصار الزعيم أرتيغاس في لاس بييدارس، وهي هزيمةٌ إسبانية أخرى، أليس كذلك؟» غير أن مشجِّع بيتروني لم يكن يستسلم بسهولة: «وبيتروني مؤخراً يقوم بمراوغاتٍ مثيرةٍ. أقسم بالله أنني رأيته يسدد حوالي عشرين ضربةً إلى المرمى في مباراةٍ واحدةٍ، ثماني عشرة منها تاهت في السحاب، ولكن الضربتين الأخيرتين اللتين اخترقتا قلب المرمى لم يستطع أحد إيقافهما دون تحقيق الهدف، لأن ضرباته كأنها ضربات مدفع. أنسيت أنه الهداف؟» «نعم، هداف، هداف.

ولكن بينديبيني.. – يلحُّ المتحمِّس لهذا الأخير – ولا تنس ميزاته خارج الملعب. في سنة 24، عندما نُظِّمت المباراة الكلاسيكية بين الأوروغواي والأرجنتين، تكريماً لوليِّ العهد أومبيرتو دي سابويا، وكان يزور منطقة ريبو دي لا بلاطا، رفض بيينديبيني اللعب، لأن مبادئه الجمهورية تمنعه من تكريم ملكيةٍ، ولو كانت ملكية إيطالية. ما رأيك؟» «رأيي؟ رأيي هو أن جدي المسكين كان عميق الإيمان بالجمهورية، ولكنه لم يلمس كرةً في حياته، هذا هو رأيي. ولقد قال لي أحدهم أن بيتروني بارعٌ في إعداد أكلة «الكانيلوني ألا روسيني» ولكنني لم أسجِّلها ولم أعتبرها مزيّةً رياضية. قليل من الجد يا صاحبي!»، إلخ.، إلخ.

وبعد ذلك، بعد افتراقهما عن الأصحاب، كانا يتمشيان في شارع

دييسيوتشو ويدخلان المكتبات، حيث كان الوالد يشتري دائماً كتاباً أو اثنين، إذ كان مولعاً بالقراءة. وإذا كان من اللازم شراء سراويل داخلية أو ربطات عنق له، أو كنزة لكلاوديو، كانا يقصدان متجر لندن باريس. فمنذ زواجه، لم يشتر الوالد لباسه إلا من ذلك المتجر، «لأنك هناك تجد كل ما تريده». وكان كلاوديو يظل مبهوراً أمام تلك الأعداد الهائلة من الناس في المتاجر والشوارع وكان يبدو له أن الأطفال الذين كان يراهم وسط المدينة يتمتعون بحرية أكبر، وأنهم أكثر استقلالاً من أطفال كابورو. بطبيعة الحال، كان دائماً هناك ثمة طفل يتجاوز حدود هذه الاستقلالية، فيستحق بذلك جذبه من شعره. وكان كلاوديو آنذاك يحس وكأنه هو الذي ينال العقاب، حتى أن الألم كان يرتسم على وجهه، لأنه كان يعرف جيداً هذا النوع من «العذابات الصغيرة». فأمه كانت خبيرةً في هذه العقوبات الطفيفة.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك كلابٌ في الشارع، كلابٌ كثيرةٌ ومهذبةٌ بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، إذ أنها تنتظر الإشارة لتعبُر الشارع من الزاوية، مع باقي المارة الآخرين، الآدميين منهم. ووجه الشبه الوحيد بين تلك الكلاب وكلاب كابورُّو كان هو سلوكها تجاه الأشجار. كان كلاوديو قد تعلَّم من معجم الأكاديمية أن الكلب «حيوان ثديي آكل للحوم، أليف، ذو أحجامٍ وأشكالٍ وفراءٍ جد مختلفة، حسب الأجناس، ولكن ذنبه دائماً ملتوٍ قليلاً أو كثيراً إلى

اليسار وطوله لا يبلغ طول القائمتين الخلفيتين، يرفع الذكر إحداهما ليتبول»، وكان بالتالي يسلِّي نفسه بتمييز الذكور من الإناث، من خلال مشاهدة تلك الحركة الرياضية الفطرية. ولا داعي إلى القول بأنه كان يعتبر نفسه اختصاصيّاً في هذا الموضوع. أما القطط فكانت محيِّرةً بالنسبة إليه، وبما أن المعجم لا يقول عنها شيئاً (أو باصطلاح آخر: لا يقول عنها حتى «مياو») فقد تخلى عن محاولة تمييز الذكور من الإناث، لعدم استطاعته التمييز حتى بين مواء الذكور ومواء الإناث.

وكانا يعودان متأخرين، بحيث يلحقان موعد العشاء، فتطلب الأم منهما أن يحكيا لها الرحلة بكل تفصيل. فيقول لها الوالد: «اطلبي منه أن يحكي لك هو»، لأنه منهكٌ من كثرة المشي، وحينئذ يحكي لها كلاوديو، وهو في منتهى النشاط، كل شيءٍ بدقةٍ وسرورٍ وتركيزٍ، كما لو أنه تعلم ذلك من كارليتوس سولي، وهو ينقل أحداث مباريات ملعب سينتيناريو، الذي كان يقسِّمه مسبقاً إلى مربعاتٍ مرقَّمة، بحيث كان المستمع يتتبع مباراة كرة القدم وكأنه يشاهد مباراةً للشطرنج بين كابابلانكا وألخيني.

أخبار سيئة

ذات مساءٍ، ناداني أبي من المطبخ، وكنا قد بقينا وحيدين بالبيت. كنت أحس ببعض الملل لأنني لا أذهب إلى المدرسة وليست هناك ألعابٌ أتسلى بها، ولكن الملل تبخر بعد خمس دقائق. كان أبي جالسا يتناول المتة، كعادته كل مساء. «اجلس!» قال لي آمراً. فجلست على المقعد الذي أشار إليه وأخذت أتساءل عن سبب هذا الاستدعاء الذي تحيط به كل هذه الرسميات. ماذا تُراني فعلت حتى يستقبلني أبي بكل هذه الجدية؟

وبدأ قائلاً «كلاوديو»، الشيء الذي زادني قلقاً، إذ أن أبي لم يكن يناديني باسمي إلا نادراً، وكان عادة يقول لي «يا ولد». «لدي خبر سيئ». بلعت ريقي وبدأت ركبتي اليمنى ترتعش. «أنت لم تعد صغيراً وأظن أننا يجب أن نقول لك كل شيء، مهما كان محزناً». فاجأني أن يكون أبي، وأبي بالذات، هو الذي يطردني بلا مقدمات من دنيا الطفولة. بإمكان أيٍّ كان أن يلحظ أنني ما زلت طفلاً، بغضِّ النظر عن تاريخ ازديادي الموثق ببطاقة التعريف.

وانفجر الخبر. «أمك، وإن لم يكن واضحاً عليها، مصابةٌ بمرضٍ

عضال». وقبل أن أدرك خطورة الخبر السيئ اكتشفت شيئاً آخر: أبي عادة يقول «ماما» وليس «أمك». مهما يكن الحال، فإن ركبتي اليمنى توقفت عن الارتجاف. لم يكن الوقت وقت تفاهاتٍ. انحبست أنفاسي للحظةٍ. لا لأنني أريد ذلك بل لأنني بكل بساطة لم أستطع التنفس. كنت أحس أن رئتيَّ ستنفجران من الهواء ولكنني غير قادر على إخراجه. أخيراً تمكنت من ذلك لأسأل: «ستموت؟» وردَّ أبي، بصوتٍ خافتٍ وعينين أصبحتا فجأةً دامعتين: «نعم، ستموت». تسلَّحت بكل ما أملكه من قوةٍ لأسأله هل تعرف هي ذلك. «لا، هي تعرف فقط أنها مريضةٌ جداً وتظن أنها يمكن أن تتعافى. وهذا هو ما نقوله لها أنا والطبيب».

شعرت بالبرد، ببرد غبي وسخيفٍ، فقد كنا في فصل الخريف، وهو عندنا أكثر الفصول لطفاً، ولكن ذلك، على الأقل، جعلني أحس بالدموع الأولى التي انهمرت ساخنةً على وجنتيَّ الباردتين. كان لا بد أن أفعل شيئاً، أي شيء، فقمت من مكاني واقتربت من أبي، وترك هو مشروب المتة أخيراً على الطاولة، وضمَّني إلى صدره ضمةً طويلةً عميقةً. وهذا أيضاً كان شيئاً جديداً، فأبي لم يكن رقيق العواطف ونادراً ما كان يضمني إلى صدره.

وأثناء عناقنا أحسست بانتحابه، وأتذكر أن نحيبه لم يكن له نفس إيقاع نحيبي. وأتذكر أيضاً أن الولاَّعة التي كان يحملها في جيب

قميصه آلمتني في كتفي، ولكنني لم أشتك، طبعاً. وعندما تنحى رأيت في يده منديلاً ناصع البياض، كأنه اشتراه حديثاً، وقرّب المنديل من عينيه ومسح دموعه، ثم مسح دموعي أنا أيضاً، وجعله على أنفي لأتمخط، كما كان يفعل وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري. وقال: «شيء واحد أطلبه منك وهو ألاَّ تعلم هي بأنك تعرف أنها مصابةٌ بمرضٍ خطيرٍ. عامِلها كما العادة، ولو كلَّفك ذلك مجهوداً كبيراً».

وعندما رجعت أمي مع أختي إيلينا، بعد ذلك بساعتين، كنا أنا وأبي قد استعدنا هدوءنا، أو قناع هدوئنا، بالأحرى. وعندئذ فقط لاحظت لأول مرة، ربما لأني كنت قد عرفت الحقيقة، أن أمي كانت شاحبة الوجه، هزيلةً، وأن عينيها متعبتان. اقتربت منها وطبعت قبلةً على خدها. فسألتني مندهشة: «ما المناسبة؟» «هذا لأننا اشتقنا إليك». وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ واهيةٌ، دون أن تصدِّق. وفكرتُ أنني لا أجيد التمثيل.

وهناك، في آخر الفناء، رأيت أبي منعزلاً في الظلمة. في تلك اللحظة، لا أدري لماذا، تنبّهتُ إلى أن أمي، منذ عدة شهور، لم تقل لوالدي بأن أصحاب «غالارسا» قد قاموا بزيارتها. واستنتجت أنهم ربما قد سافروا.



فتاة التينة (1)

صعدت إلى غرفتي بمجرد أن سنحت لي الفرصة. كنت في حاجةٍ إلى أن أنعزل لأفكر في الأمر. ظللت حائراً لمدةٍ طويلةٍ، وأنا جالسٌ على السرير أنظر إلى شجرة التين دون أن أراها. فكرت: «يتيماً، سأصبح يتيماً». إحساسٌ غريب، إحساسٌ بالحسرة والضياع (ليس أمراً سهلاً أن تبقى بلا أمٍّ في الثانية عشرة من عمرك)، وإحساسٌ أيضاً بأنني أنتقل إلى حالةٍ جديدةٍ. لا يوجد أيّ يتيم بين أصدقائي. سأغدو أنا أول يتيم. حتى أختي ستغدو يتيمةً، ولكنّها صغيرة جداً ولن تحس بذلك كثيراً. ظللت هناك أبكي لمدةٍ، ولكنني لست متأكداً إن كان بكائي بسبب موت أمي المنتظر أم بسبب يتمي الوشيك.

حينئذ سمعت صوتاً يقول: «ما بك؟ لماذا تبكي؟» وأحسست أن شخصاً ما يتجسس علي ويعتدي على خصوصيتي. رأيت فتاةً في أعلى التينة تنظر إلي. فتاة لا أعرفها. سألتها من هي فقالت لي أن اسمها ريتا وأنها ابنة خالة نوربيرتو. كانت تكبرني بعامٍ أو عامين. أخذت تتحرك عبر الأغصان ببطءٍ، حتى وصلت إلى نافذتي ثم نزلت داخل غرفتي. استطعت أن أرى من خلال دموعي أنها جميلةٌ

إلى حدٍّ كبيرٍ، وأن نظرتها حلوة وأن ساعة يدها – والتي هي أيضاً إسورةٌ – تشير إلى الثالثة وعشر دقائق.

وضعت يدها على كتفي وعادت تسألني «ما بك؟». فقلت «ماما ستموت»، مبدياً غمّاً أشدَّ من الذي كنت أحس به. فقالت ريتا مدليةً برأيها: «كلنا سنموت». «ولكن ماما ستموت قريباً». وأضفتُ: «وهذا سرٌّ لا يعرفه أحد. لا يجب أن تقوليه لنوربيرتو، لأنك إذا فعلت ستعرف الحارة كلها، ابتداءً من القسيس». «اطمئن. لن أقول شيئاً. تصوَّر أنه ليس لدي حتى قسيس أعترف له». وهذا الكلام جعلني أثق بها.

جلست بجانبي على السرير، وقالت: «لا تخجل من البكاء فهو مفيد. لأنه يخلِّص الجسم من التوكسينات. لذلك نعيش نحن النساء أكثر من الرجال. لأننا نبكي أكثر». كلامها المليء بالحكمة أصابني بالذهول. ولكني توصلت إلى استنتاجاتي: أبي لا يبكي إلا نادراً وأمي تبكي كثيراً، ومع ذلك، ورغم التوكسينات التي تخلَّصت منها، فإنها ستموت قبل أبي. ولم أقل شيئاً عن هذه الاستنتاجات لريتا، فقط لكي لا أحبطها. حينئذ مرَّرت هي يدها (الناعمة ذات الأصابع الدقيقة الباردة شيئاً ما) على وجنتي التي ماتزال مبللةً بالدموع، وباليد نفسها شدَّتني قليلاً حتى ألصقَت رأسي بصدرها. أحسست بالمواساة والراحة.

واعتراني شعور غريب بالطمأنينة (غير ثابتٍ، بل نشيط). تلك اليد التي طمأنتني داعبت صدغي وشفتي وذقني. أحسست أنني في الجنة وأن أحزاني قد تلاشت أو تكاد أن تتلاشى، ولكني أدركت إدراكاً غامضاً أن كآبتي، برغم كل شيءٍ، استثمارٌ جيد، ولذلك استمررت في إبداء حزني.

عندئذٍ قامت ريتا بشيءٍ كان فعلاً نقطة النهاية لطفولتي: قبلتني. على وجنتي، عند زاوية الشفتين، وأطالت قليلاً تلك القبلة. فأصبح لديّ انطباعٌ بأن ذاك كان أول مسوّدة لسعادتي. ثم قالت: «كلاوديو، أنت تعجبني. نوربيرتو يقول عنك كلاماً طيباً. أنت أحسن صديق لديه». «حتى أنت ستكونين صديقتي؟» «طبعاً، أنا الآن صديقتك. ولكني سأسافر غداً، للأسف». آه، الجحيم بعد الفردوس. «إلى أين ستسافرين؟» «إلى قرطبة، في الأرجنتين. أنا أعيش هناك». «وهل سترجعين إلى هنا؟» «لا أظن». عندئذ قبلتها أنا أيضاً في خدها، قرب الشفتين، فابتسمت. يا لطيبوبتها. أظن أن القبلة أعجبتها. أحسست باضطرابٍ كان جديداً علي، بنشوة شبه بطولية. لم يكن، لأسباب بيّنة، هيجاناً جنسياً، لِنقل إنه كان انفعالاً ما قبل الجنسي. انفعالاً، على كل حالٍ، أقوى من الذي سببته لي أنطونيا في زمنٍ ماضٍ. ووقفَت ريتا واقتربت من النافذة، وبحركاتٌ سريعةٍ بين أغصان التينة

عادت إلى فناء نوربيرتو. حيَّتني من الأسفل. واكتفيت أنا بالنظر إليها، بكثيرٍ من الأسى.

وداعاً وأبداً

من يذهب يأخذ معه ذاكرته، الطريقة
التي يكون بها نهراً، هواءً، وداعاً وأبداً.

روساريو كاستييانوس

المرحلة النهائية بالنسبة لأمي استغرقت ستة أشهرٍ، زيادة على تكهُّنات الطبيب بشهرين. لم أعرف يوماً اسم المرض الذي أصابها ولم أرغب في معرفته. وأثناء السهر على جثتها قبل الدفن، سمعت أحدهم يتكلم عن خلايا ورمية ولكن ذلك لم يكن يعني لي أي شيء. هي في الواقع، أخذت تنطفئ شيئاً فشيئاً. كانت في البداية تفرض على نفسها القيام ببعض أشغال البيت، الخفيفة منها، ولكنها بعد ذلك كانت تظل ساعاتٍ طويلةً على السرير، لا تقرأ ولا تستمع إلى الراديو. تغمض عينيها غالباً دون أن تنام. وكانت إيلينيتا تقترب من السرير على أطراف أصابعها ولكن أمي، رغم ذلك، كانت تحس بوجودها وتطرح عليها أسئلةً ترد عليها أختي، وهي مذهولةٌ بذلك السكون، بإجابات مقتضبة. ثم تقول لها:

«والآن، اذهبي، إيلينيتا، ماما متعبة».

أنا أيضاً كنت أقترب، فتنظر هي إليّ بكثيرٍ من الحزن ولكن نادراً ما تبكي. وتقول لي أشياء ليست كثيرة الأهمية، مثل «يجب عليك أن تساعد أباك. هو وحده لا يستطيع أن يهتم بالبيت. ساعده إلى أن أستعيد عافيتي أنا، هه؟» أو «لا تهمل دروسك. الدراسة أهم شيء». تلك كانت طريقتها لجعلنا نعتقد أنها لا تعرف أن النهاية قريبة. خلال تلك الأشهر الستة لعبنا جميعاً لعبة خدعةٍ بخدعة. إنه النفاق الرحيم. كانت خالتي خواكينا وابنتها روسالبا تجيئان مراراً لتسلية أمي، ولكنهما كانتا تتعبانها بالثرثرة والقيل والقال، إلى أن تكلم أبي معهما ومع بقية الأقارب، حتى لا يطيلوا الزيارة، لأنها تنهك أمي وقد أوصى الطبيب بألا يزعجها أحد. واعتبرت الخالة خواكينا ذلك إهانةً من أبي (إذ لم تكن علاقتهما جيدةً قط) فكفّت هي وابنتها روسالبا عن زيارة أمي.

زارنا كذلك الجد خابيير بضع مراتٍ (لم يجرؤ أبي على حصر زياراته لابنته) وكان يحكي لها نكتاً بهدف تشجيعها (كان رصيده من النكت لا ينضب) ولكن النتيجة لم تكن تتجاوز ابتساماتٍ ضعيفةً من أمي، كدليلٍ أخير على الحب الذي تكنّه لأبيها.

ماتت أمي ذات أحدٍ، في الثالثة وعشر دقائق، مساءً. كان قد مضى أسبوعٌ تقريباً لم تنطق فيه بكلمة واحدة، وعندما كانت تفتح

عينيها، كنا لا نعرف إذا ما كانت تنظر إلى شيء أو إلى أحد ما، أم أنها فقط تخبرنا بأنها ما تزال حيةً. وقبل أن تلفظ أنفاسها، لم تنطق بأية جملةٍ من تلك الجمل الجديرة بأن يتذكرها الأقرباء، ولا أعطت أية نصيحةٍ نهائيةٍ حاسمة. كل ما فعلته هو أنها توقفت عن التنفس.

الجثة الثانية في تاريخي. أما الأولى فكانت جثة الداندي. الغريب في الأمر أنه لما التقيت بنوربيرتو ودانييل وفرناندو، ليلة السهر على جثتها، ذُكِر اسم الداندي الذي لم نكن قد تكلمنا عنه، منذ مدة طويلة (كأننا بذلك نبعد عنا الأرواح الشريرة). في الحقيقة، كان وجه أمي وهي في النعش، مختلفاً عن وجه الداندي عندما وجدناه في الحديقة. كانت تعلو وجه أمي سحنة هدوء، كتعبيرٍ عن الراحة الأخيرة المرغوبة، بينما مات الداندي وعلى وجهه مسحة شقاء. طلب أبي من أخيه، العم إيدموندو، أن يتكفّل بإجراءات الدفن والسهر على الجثة والجنازة، وانعزل هو في المطبخ يتناول المتة. لايريد رؤية أي كان.

كانت إيلينيتا تجوب البيت كروحٍ صغيرةٍ معذبةٍ، فأخذتُها معي إلى غرفتي وتكلمت معها في مواضيع جدية ولكن ليست كلها متعلقةً بالموت. كانت في الثامنة من عمرها، مصدومة تماماً، أمام صورة أمي التي لا تتحرك ولا تسمع ولا تتكلم. قلت لها ملاطفاً:

«إيلينيتا، هذا هو الموت: لا نتحرك ولا نسمع ولا نتكلم مطلقاً. ولا نفكر. ولا نحلم». فسألت هي «وهل نشعر بالألم؟ « وهي على وشك البكاء، بشكلٍ هزَّني كثيراً. «لا، لا نشعر بالألم». لأول وهلةٍ، بدت مقتنعةً بالجواب، ولكن نظرها وقع فجأةً على شجرة التين. «أرأيت، كلاوديو؟ الشجرة لا تتحرك ولا تسمع ولا تتكلم ولا تفكر ولا تحلم ولا تحس بالألم، ولكنها حية، أليس كذلك؟ ربما كانت ماما الآن مثل الشجرة». لم أقبل الهزيمة يوماً ولذلك قلت لها: «لا يا إيلينا، الشجرة ليست إنساناً. الشجرة تخضع لقوانين أخرى». ويبدو أن كلمة «قوانين»، لأنها لم تفهمها، قد تركتها ذاهلة، ولحسن الحظ، ظلت صامتة.

جوليسكا تتكلم بالإسبانية

كنت أعرف أن أبي يكتب، بشكل شبه يومي، في دفاتر تحمل على غلافها بطاقةً مكتوب عليها «مسودات»، وإن كنت لم أجرؤ قط على استكشاف محتوى صفحاتها. تُرى ماذا كان أبي يدوِّن هناك؟ لم أعرف ذلك قط، ولكن بعد مرض أمي توقف أبي عن الكتابة وخبأ تلك الدفاتر في درج أغلقه بمفتاح.

ولم يغادر أبي المطبخ، الذي كان قد جعل منه حصنه، إلا في اليوم التالي من الجنازة ليستأنف حياته مع الأسرة. كانت قد التحقت بأسرتنا، قبل ذلك بحوالي ستة أشهر، امرأة يوغوسلافية، في الأربعين من عمرها، اسمها «خوليسكا» (ولكنه يُنطَق «جوليسكا»). كانت تقوم بجميع الأشغال المنزلية بنشاطٍ ملفتٍ للانتباه وتُعامِلنا أنا وإيلينيتا ببعض الصرامة، مخاطبة إيانا بلغةٍ إسبانيةٍ ضعيفة، يصير المذكَّر فيها مؤنثاً والمؤنث مذكراً والنتيجة كلام مضحك للغاية. وكانت تتميز بِجُمل مثل: «ماذا كانت أمك لك ستقول لو رأتك بقميصة متَّسِخة،... ولكن «أمي لي» لم تعد موجودةً هنا لترى «القميصة».

كانت جوليسكا من النساء اليوغسلافيات اللواتي هربن من البؤس ومن أشياء أخرى أقل أهمية، في فترة الثلاثينات، ووصلن على متن باخرةٍ إلى مونتيفيديو. هؤلاء عندما كنَّ يصلن إلى البر، كنَّ يقعدن على الرصيف، في انتظار سيدات مونتيفيديو، اللواتي كنَّ يوظفنهنَّ للقيام بأشغال البيت. وكنَّ، أثناء الرحلة، يتعلمن مبادئ الإسبانية، أو بالأحرى، كلماتٍ متفرقةً، يستعملنها بعد ذلك بشكلٍ عشوائي، ولكن دون أدنى خجل. ونظراً لمرض أمي، تطوعت إحدى الجارات لتذهب إلى الميناء، وهناك، اختارت جوليسكا، وهي، برغم كل شيء، كانت اختياراً موفقاً. كان شكلها شكل امرأةٍ بدويةٍ تتمتع بعافيةٍ جيدة، تلفُّ شعرها على شكل كعكة (لا أدري كيف) كانت تثبِّتها، عند مؤخر الرأس.

خلال الأسابيع الأخيرة من حياتها، كانت أمي تنزعج من الضجيج، لذلك أصبح السكون هو الحالة الطبيعية في بيتنا. وظل الأمر هكذا لأسابيع طويلة بعد وفاة أمي. كنا كلنا نتكلم ببطء وبصوت خفيض. كان صمتاً كثيفاً منيعاً، نوعاً من الحداد اللفظي، جعلني في نهاية المطاف، أحس بالاختناق. أحياناً كانت إيلينيتا تصعد إلى غرفتي العلوية، وكنا نقفل علينا الباب، الذي كان متصلاً ببقية أرجاء البيت، وهناك كنا نحس بالارتياح ونتحدث كما اعتدنا أن نفعل من قبل.

والغريب في الأمر هو أن أحداً لم يفرض ذلك الصمت (باستثناء أمي في أيامها الأخيرة) ولكننا كنا جميعاً نخضع له. واستمر الأمر كذلك، إلى أن عاد أبي من عمله، ذات مساءٍ باردٍ وغائم، واستدعانا كلنا إلى المطبخ (الذي كان بمثابة مكتبٍ بالنسبة إليه) وقال لنا: «كفى همساً! ابتداءً من اليوم، في هذا البيت، سنتحدث كأناس عاديين». وكانت جوليسكا أول من امتثل للأمر، مبتهجةً صائحةً «يا للخبرة السارة!». وأضافت «كنت مالاً من كل هذه الصمتة». وفي تلك اللحظة انقشعت السحب هناك في الأعلى، وغزت أشعة الشمس الفناء.

خلال فترة الحداد اللفظي الذي دام ستة أشهر، كنت أنا قد نجحت في اجتياز امتحان الالتحاق بالثانوي (وكما كان متوقعاً، لم تكن التهاني من نصيبي بل من نصيب السيد فوسكو) وكنت قد بدأت أذهب بانتظام إلى ثانوية ميراندا، بشارع سييرا. كنت أكبر من أغلبية زملائي في القسم (بسنة أو أقل قليلاً)، بسبب مرضي الطويل الذي جعلني أضيِّع فترة دراسية بكاملها. ولكن فارق السن لم يكن ملحوظاً، فقد كنت، في ذلك الوقت، صغير الحجم.

ومع ذلك، التحقت بفريق كرة السلة (وعلي أن أعترف أن النتائج كانت ضعيفة)، ولكنني شاركت بنجاح في اليوم الافتتاحي لِ «بلاثا دي ديبورتيس»، التي تقع قبالة كنيسة لا أغوادا. حيث

شاركت في سباق الـ 400 متر، وفزت على ألونسو، الذي كان يلقَّب بـ «الأرنب»، بفارق عدة أمتار، وقد كان العدَّاء الأوَّل للثانوية والمفضَّل لدى الفتيات. وبعد انتهاء السِّباق، لم يقترب مني لتهنئتي، بل أحطن به هو لمواساته. وكانت تلك أول شهادة ظلمٍ اجتماعيٍّ أحصل عليها. و«الأرنب»، على كل حال، لم ينس تلك الإهانة، لذلك، في العام التالي، ومن أجل السلام العالمي، تركته يفوز عليَّ (بفارق نصف رأس فقط، للعِلم!) في سباق الـ 800 متر، وأصبحنا بعد ذلك صديقين حميمين، وفي مناسباتٍ كثيرة، سمحت له بأن ينقل مني، في الامتحانات الكتابية، خاصةً في مادة الرياضيات.

عندما كنت ألتقي بنوربيرتو (وكان يدرس في ساغرادا فاميليا) وبدانييل (الذي كان يدرس في إلبيو فيرنانديس) أو بفرناندو (وكان تلميذاً بالثانوية الفرنسية)، لم نكن نتكلم عن الدراسة، وإنما عن كرة القدم. وأحياناً كنا نذهب كلنا إلى الملعب لمشاهدة مباراةٍ، فيكون ذلك الموضوع حديثنا طيلة الأسبوع. ولكن، في إحدى المرات التي تسلَّقَ فيها نوربيرتو شجرة التين ليأتي إلى غرفتي، ارتأيت أنه من المناسب أن أسأله عن ابنة خالته. فأجاب مستغرباً«أية ابنة خالتي؟» «ريتا». «ليس لدي أية بنت خالة». فقلت: «ماذا؟ ليس لك ابنة خالة اسمها ريتا وتعيش في قرطبة؟» «قلت لك لا. من أين جئت بهذه الحماقة؟ أنا لا أملك لا بنات خالات ولا أبناء أعمام، فأرجوك

لا تخترع لي واحداً أو واحدةً غداً أو بعد غد».

لم أعد أتذكر ما الذي أضفته لكي أبرِّر اهتمامي، ولكن الأمر توقف عند ذلك الحد، بِلا أي تفسير، والتينة شاهد معنيٌّ بالأمر. مَن بوسعه أن يعرف أكثر مني بأن ريتا فتاةٌ من لحم ودم؟ وجودها في غرفتي لم يكن حلماً. ثم إنها قبّلتني، والأشباح لا تقبِّل، أم هي تفعل؟

احتفالٌ في الحي

وحدث ما كنت أخشاه: بدأ أبي يتكلم عن الانتقال إلى بيت جديد. صحيح أن بيت كابورُّو، بعد أن غابت أمي، لم يعد هو نفسه. ولكنه رغم ذلك «بيتي». وإلاَّ أين سأجد غرفةً بشجرة تينٍ تصل أغصانها إلى نافذتي؟ ثم إن كابورُّو هي «حارتي». هناك يوجد أصدقائي والحديقة وملعب ليتو. وحدها جولسيكا كانت تساندني، بإسبانيتها الركيكة: «لماذا الرحيلة؟ هذه الحيَّة جميلة. أين تذهبون وتجدون حالاً كهذا، كبيرةٌ، بثمنٍ مناسبٍ، خمس غُرَف؟ لكن أبي كان يريد أن يغيِّر البيت. كان يقول أن كلَّ ركن في البيت يذكِّره بأمي وكان مصمِّماً على وضع حدٍّ، بشكل نهائي، لذلك الحِداد المَرَضيّ. وهالني استعماله لمصطلح «مَرَضيّ». قال أنه يريد أن يعيش من جديد. «ثم إني لا أرغب بتغيير البيت فقط، بل كل الحي». وكنت أسأله، بلا أملٍ كبيرٍ، لأنه كان مصرّاً تماماً: «ألن تشتاق إلى المطبخ والمتة؟» «المتة سآخذها معي وبالنسبة للمطبخ، هناك مطابخ في كل البيوت». وعندما تيقَّنتُ من أن الأمر جدِّيّ، بدأت أودِّع الحارة والشارع والأصحاب. ذهبت، أوَّلاً، إلى

ملعب ليتو، يوم السبت. حيث كانت هناك مباراةً للفريق المحلي ضد فينيكس، وهو الفريق الجار. وكانت مباراة كلاسيكية بمعنى الكلمة. فنفس الأشخاص الذين كانوا يلعبون لعبة الورق، كل ليلة، وهم يتناولون البيرة معاً أو كونياك مع ليمون، مُحتفِين عندما يربح أحدهم أو يخسر، بقهقهات رنانة، نفس هؤلاء، كانوا هناك في الملعب يكرهون بعضهم بعضاً كراهيةً متعصِّبةً شديدةً، قد تصل بهم أحياناً إلى تبادل اللكمات. وكما يحدث عادةٍ في هذه الحالات، كان يظهر رجلٌ يحاول إبعادهم، فتصيبه إحدى اللكمات الضائعة، ومع ذلك يذكِّرهم بأنهم أصحاب رغم كل شيء. فيتصالح الطرفان كرهاً ويسود السلام، على الأقل، حتى الشوط الثاني من المباراة. في تلك الأمسية انتصر فريق ليتو على فينيكس، عن جدارةٍ، بفضل هجومين رائعين. بدايةً، بِـ «الهدف الأنطولوجي» (هكذا أسماه المذيع الرِّياضي ل«إل دياريو»، وهي الصحيفة الوحيدة التي تقدم تغطيةً لا بأس بها لفِرَق الدرجة السفلى) الذي سجّله نياتو بعد أن تخلَّص من سبعة أو ثمانية خصوم، وواجه الحارس وسدَّد ضربةً هائلةً بالقدم اليسرى ردَّها إليه العمود الذي اهتز اهتزازاً، ثم بعد أن استرجع الكرة، وبينما الحارس لايزال ملقى على الأرض، سجَّل الهدف بسهولة («بِفازلين» كما قال المراسل المذكور) لتدخُلَ الكرة المرمى قرب العمود الأيسر. بعد ذلك بدقيقةٍ فقط، جاء الهجوم المضاد

للاعبي فينيكس وأوقع اللاعب لوبيثون مهاجماً مركزياً من الفريق الخصم، برفسةٍ كأنها ضربة فأس، في منطقة الجزاء وأمام عيني حَكَم المباراة، الذي لم يجد مفراً من استعمال صفارته بصرامة تامة، معلناً ضربة الجزاء المشؤومة، في اللحظة نفسها. وتكلَّف بالمهمَّة هدَّاف الفينيكس الذي لا يخطئ أبداً في ضربات الجزاء، وأرسل الكرة مباشرة نحو إحدى زوايا المرمى، ولكن حارس ليتو، الذي كان قد التحق حديثاً، طار صوب تلك القذيفة المسمومة وصدَّها بيديه ونزل بها إلى مستوى الحنجرة، وسط ذلك الصِّياح الفريد من نوعه الذي ينفجر عادةً، على إثر لحظة ذعر. لم يكن قد بقي سوى سبع دقائق على نهاية المباراة، لكن مشجِّعي ليتو احتلُّوا الملعب، فكان لابد من انتظار ربع ساعة أخرى، حتى يتسنى تكملة تلك البقية الوجيزة من المباراة. ومن حسن حظ فريق ليتو أن لاعبيها احتفظوا بالكرة أثناء اللعب بطريقةٍ عجيبة، لأن الحارس الجديد، بعد تعرُّضِه لفورة السرور العارم لمحبي فريقه، كان يعرج ولا يرى إلا بعين واحدة، وهي حالةٌ بعيدةٌ عن أن تكون مثالية بالنسبة لحارس مرمى. لو كانت أية مباراةٍ عاديةٍ أخرى لكان عوَّضه المدرب بالحارس الاحتياطي، ولكن فريق ليتو كان بدون مدرِّب في ذلك اليوم (لأن زوجته كانت في المستشفى تضع طفلها الأول)، وبدون حارس احتياطي (ذلك أن الحارس الأصلي كان طريح الفراش بسبب الحصبة الألمانية، وهي

داءٌ كان «موضة العصر»، في ذلك الوقت). ولهذا فإن كل ما كان يطمح إليه لاعبو ليتو هو ألاَّ يصل مهاجمو فينيكس المتكالبون إلى مرماهم. ولم يصلوا. دامت فرحة الحي وضجيجه حتى الفجر، وفي بارات شارع كابورُّو والضواحي القريبة، أفرط محبُّو فريق ليتو في شرب البيرة والنبيذ الأحمر، وحتى نبيذ التفاح، الذي دار على حساب رجل ثريّ، كان عضواً مؤسساً للفريق الفائز. وكان ختام المسك، عند منتصف الليل، عندما ظهر في الأفق المدرِّب الذي أصبح أباً لأول مرة وهو سكران تماماً، وفتح ذراعيه في وسط الشارع وصاح بين ضحكات وفواقات وحشرجات: «إنه ذكر، يا أولاد، إنه ذكر!» وفي غمرة تلك الأفراح، لم يجد العضو الثري المؤسس بدّاً من طلب بضع زجاجاتٍ، هذه المرة، للشمبانيا.

وباعتباره أيضاً يومَ وداعي الشخصيّ لفريق ليتو، لم يكن ذلك اليوم سيّئاً على الإطلاق. وهذه المرة كنت قد ذهبت إلى الملعب وحدي، دون أبي الذي لم يكن بعد مستعداً لأن يعيش انفعالات جديدة. وعُدتُ إلى البيت في وقتٍ متأخرٍ جدّاً. كان معي مفتاحٌ خاص بي منذ أسبوع، ولذلك تمكنت من الدخول متسللاً بحذر إلى غرفتي. وكانت الشمبانيا (أنا أيضاً شربت كأسين) قد صعدت إلى رأسي وجعلتني أرى كل درجة مزدوجة، وإذا لم أتعثر وأسقط أثناء الصعود فذلك لأن الله عظيم.

جوليسكا وحدها هي التي اكتشفت في اليوم التالي أمر سهرتي الصاخبة. «وصل بالليل حضرتك متأخرة جداً» أسرَّت إليَّ وهي تُعِدُّ الإفطار. إلاّ أن أبي الذي كان يشرب المتة في تلك اللحظة (كانت أمي تقول دائماً أن أبي يمتلك سمعاً حادّاً جداً) ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ متسامحةٌ وهو يرتشف المتة بالقصبة الرقيقة. «انتصر ليتو بلا شك. يا لها من ضجة!». كنت أحس ببعض الألم في رأسي ولكني رويت له باختصار أحداث المباراة (هدف النصر، ضربة الجزاء التي أوقفها الحارس) والاحتفال، وطبعاً لم أقل له أنني شربتُ الشمبانيا. أعتقد أن حكايتي أمتعته. ومع أن ولاءه الفكري كان لفريق ديفنسور، إلا أن فؤاده الذي ينتمي إلى الحي كان ما يزال مِلكاً لليتو.

كانت الحديقة مقفرة

كان الوقت مايزال مبكراً، عندما خرجت إلى الشارع، لتوديع الحديقة، وكان الجميع ينامون نوم المخمورين متأثرين باحتفال يوم أمس، ثم إن اليوم يوم أحد. جعلني الهواء البارد أفيق تماماً. وكنت كلما تذكرت الشمبانيا أحس ببعض الغثيان ولكن بعدما تمشَّيت قليلاً، بدأت حالتي تتحسن.

حتى الحديقة وجدتها مقفرة. لم أكن قد عدت إلى هناك منذ عثورنا على جثة الداندي وذهابي بعد ذلك وحيداً للاستطلاع، ولكن كان لابد أن أودِّع الحديقة. وكان علي أن أودِّعها وحدي دون حضور الآخرين. كانت الحديقة منذ أن أقمنا بكابورُّو مكاناً في غاية الأهمية بالنسبة إلي. كم جرينا هنا وكم خضنا من معارك! مخابئنا القديمة الآن تملأها الأوراق الجافة، وهناك حيث ظلَّت بعض الطحالب، كانت توجد بضع قطرات، لعلها قطرات ندى أو رذاذ مبكر. وتسلَّلتْ، فجأة، من خلال أوراق الأشجار أشعة شمس متقطِّعة. وحينئذ، وأمام ذاك الجمال المفاجئ، أحسست بغصّةٍ في حلقي، لا علاقة لها بمفعول الشمبانيا.

أدركت إدراكاً تاما أن ثمة شيء قد انتهى، وأن ذلك المفتاح الذي كان قد أعطاني إياه أبي، قبل بضعة أيام، كان يغلق أيضاً مرحلة طفولتي. جلست على مرتفع صغير معشوشب. مبلَّلٍ، واخترق الشعور بالبرودة سروالي القصير، ولكني، مع ذلك، لم أقم. كنت سخيفاً بشكل لا يطاق (هكذا أرى الأمر الآن، ولكني لم أكن أراه كذلك، في ذاك الأحد) وأحسست أن البلل أو تلك القطرات التي تكسو الطحالب كانت بمثابة دموع الحديقة، وطريقتها الخاصة في توديعي. الحديقة وطفولتي انصهرتا في صورة كانت أيضاً طعماً ورائحة وملمساً وأصواتاً. وكانت بضعة طيور دورية تقطع مساراتها الخاصة، التي لم تكن دائماً نفس المسارات التي كنا نقوم بها نحن. تتوقف وتنظر إلي، أحياناً، تصل إلى حذائي الرياضي الأخضر، ولكنها لم تكن تخاف. كان هناك نحل أيضاً، ولكن النحل كان دائماً يخيفني، لأنني، ذات مرة، عانيت من لسعاته وظل وجهي منتفخاً مثل بالون، لثلاثة أيام. إن الطريقة الوحيدة لاتقاء شرِّه هي ألا أتحرك. مرَّ النحل على ساعدي الذي اقشعر، وبعد استكشاف مطوَّل، ابتعد بحثاً عن مناطق أخرى تناسبه أكثر. حينئذ فقط تحرَّكت أنا وهربتِ الطيور مفزوعة. لا بد أنها كانت تظن، إلى ذلك الحين، أنني شجرة، ولكن، كل يوم (حتى بالنسبة لعالم العصافير الدورية) هناك شيء جديد، جدير بالتعلُّم.

وبكينا أنا والحديقة وداعنا خلال نصف ساعة أخرى: هي بواسطة الندى الذي تبخر شيئاً فشيئاً، وأنا بدموعي القليلة التي جفَّت بسرعة. وانتبهت فجأة إلى أنني بدأت أحس وكأنني شخصية من شخصيات دي أميسيس وهناك انتهى السحر. لم أكن أنا شخصية لأي مؤلف. مشيت إلى أن وصلت الشارع وقد صرت إنساناً آخر، أعني أنني صرت أنا نفسي.

كنت قريباً من البيت عندما التقيت بفرناندو. حكيت له أن أبي قد قرر أن ننتقل إلى مسكن آخر وأننا سنرحل عن الحي عما قريب. وفاجأني جوابه: «حتى نحن سنرحل عن الحي. ربما نرجع إلى ميلو». فسألته «والثانويات؟» «لا أدري. لم نقرر شيئاً بعد. ربما يتركوننا مع خال أمي». «وماذا يقول دانييل؟» «دانييل يريد أن يبقى هنا وأنا أيضاً، ولكن أنت تعرف كيف تجري هذه الأمور. فهم من يقرِّر».

عندما وصلنا إلى بيتي، رأينا دانييل الذي كان قد جاء ليسأل عني. دانييل الواثق دائماً بنفسه، والذي يتباهى بعلمه الواسع في ميدان الشرطة السرية كان الآن حزيناً وجهه مكفهراً. كان حي كابورُّو بالنسبة إليهما أيضاً بمثابة بيتهما الكبير. فسأل فرناندو: «ماذا سنفعل لكي نظلَّ على اتصال، لنلتقي؟» وقلت أنا: «لا بد من أن نجد حلاً». ولكننا لم نجد ذلك الحل. وعندما تركنا كابورُّو

والحديقة وملعب ليتو و«حادث» الداندي، تركنا صداقتنا أيضاً هناك.

لم ألتق بدانييل إلا بعد ذلك بعدة أعوام وكان كل شيء قد تغير. كلانا كان قد زاد طوله حوالي عشرين سنتيمتراً، كان هو يحمل نظارات وكنت أنا بشارب. كان قد تخاصم مع فرناندو ومنذ زمن طويل، لم يكلّم أي منهما الآخر. أنا تركت الدراسة، وهو (الذي لم يعد مولعاً بقراءة الروايات البوليسية) يدرس مهنة التوثيق، وكان أبواه قد انفصلا. أما فرناندو فقد أصبح حكماً لكرة القدم. والأغرب من كل هذا هو أن أحداً منا لم يرجع إلى كابورو ولو حتى من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الذكريات. كما لو أننا جمّدنا ذلك الحنين ولم نعد نجرؤ على مقارنته بالواقع الجديد.

و لكن كل هذا حدث فيما بعد، بعد ذلك بوقت طويل. وفي صباح ذلك الأحد ثلاثتنا كنا على قناعة بأن ذلك العالم الخاص الذي خلقناه واستمتعنا به، سيستمر في إيوائنا وسيحافظ على علاقتنا. حتى فرناندو ودانييل كانا، مثلي، قد حصلا على مفتاح لبيتهما، وهي البيوت ذاتها التي كنّا سنغادرها، وستغلق أبوابها عما قريب، وتتركنا لقدرنا الجميل (أو السيئ).

إلى اللقاء

كاد توديع ماطيو أن يكون بالنسبة لكلاوديو أصعب من توديع الحديقة. كان الأعمى يخاطبه دائماً وكأنه أكبر من سنِّه الحقيقية بخمسة أعوام، ربما لأنه لم يكن يستدلُّ عليه إلا من خلال صوته وأسئلته المُلحَّة وحب استطلاعه الذي يستدعي اهتمام الشخص. ولأن الحوار كان على مستوى أرفع من مستوى أحاديث البيت أو الأحاديث اليومية التي تدور في الحي، كان كلاوديو يركِّز انتباهه إلى حد كبير، وحتى كنتيجة غير متوقعة لذلك التركيز، كان يشرئب بعنقه أيضاً، كما لو كانت تلك الحركة تساعده على أن يفهم أكثر وعلى أن يدرك ما يقوله الأعمى بشكل أفضل.

مما لا شك فيه هو أن ماطيو كان يملك تكويناً ومعرفة ثقافية قلَّما تتوفَّر في فتى من نفس سنِّه. كان والداه يتمتعان بوضعية اقتصادية طيبة نسبياً (كانا يملكان حقولاً زراعية في دوراثنو، يشرف عليها ابنا أخت جدٍّ مسؤولين، يضمنان لهم دخلاً ثابتاً) وكان بوسعهما أن يوفرا له جميع الوسائل والأدوات الثقافية التي يطلبها. كان يقرأ بطريقة برايل بسرعة عجيبة، وله جهاز أسطوانات جيد ومذياع

يلتقط إذاعات كثيرة، على الموجة القصيرة. وكان يجيد الإنجليزية والفرنسية ولصقل هذه المعارف، كان يقضي وقته في الاستماع إلى البرامج الإخبارية للإذاعة البريطانية والموجة القصيرة الفرنسية.

«إذن ستتركنا؟» نبرة صوت ماطيو التي لا تخلو من الحزن لم تكن متصنّعة. فهو قد أَلِف التحدث إلى ذلك الفتى الفطِن والذي كان لذلك، سريع التأثر أيضاً، وكان يودُّ لو يظلُّ يبثه شكوكه ويقينه، حتى يُكسِبه قدرة دفاعية تفيده في السنوات القادمة، التي لم يكن يرى (أو بالأحرى، يتصور) بوضوح، كيف ستتطور أحداثها.

فسأله «وإلى أين يذهبون بك؟» فأجابه كلاوديو«إلى بونتا كارِّيطاس. قرب السجن». «لا تنظر إليه كثيراً! هذه العوالم المغلقة والممنوعة، في نفس الوقت، عادةً لها جاذبية قوية. ولكن، في المقابل، هناك في بونتا كارِّيطاس لديك المنار. أنصحك بأن توجه اهتمامك إليه، وهكذا، في يوم ما، تستطيع أن تحكي لي ما الذي ينيره وكيف ينيره. نحن العميان، بما أننا لا نرى الجدران (فقط نلمسها)، نكتشف، أو لعلنا نخترع بُعداً آخر للحرية، إذ لدينا متّسع من الوقت للتفكير بها، أكثر من المبصرين. رغباتنا نحن ليست محايدة. مثلاً، الآن، وعلى ذكر حيِّك الجديد، فأنا لا أرغب في تصور جدران السجن، ولكنني أتمنى أن أرى (لا أن أتصوَّر فقط) ضوء المنار المتقطِّع».

كان ماطِيو يحرِّك يديه وهو يتكلم وأحياناً يضغط على أصابعه. فسأله كلاوديو، دون أن يدرك أن السؤال قد يكون محرجاً، لماذا يفعل ذلك بكثرة. «ماريا إيوخينيا تسألني دائماً نفس السؤال، ولا أعرف كيف أجيبها جواباً شافياً. أحياناً أفعل ذلك عن وعي وأحياناً لا. ربما كانت طريقة غريبة لتموقعي داخل المحيط والهواء. هل شكلي مثير للسخرية وأنا أحرك يدي؟» فقال الفتى «لا، أنا لم أسألك لهذا السبب» وقد احمرَّ وجهه خجلاً. «ببساطة، أثار ذلك انتباهي، لأنني أحسست أنه لغة لا أفهمها دائماً». «أرأيت؟ نبرة صوتك تقول لي بأن وجنتيك الآن محمرَّتان». وزاد وجه كلاوديو احمراراً. «لا تخجل من أي سؤال إذا كان صادقاً. غالباً ما تكون الأجوبة هي التي تستدعي الخجل، لأن النفاق عادة ما يظهر فيها: أن تفكر شيئاً وتقول عكسه. وهذه ميزة أخرى من ميزاتنا: أظن أننا – نحن العميان – نكتشف النفاق بشكل أفضل. بإمكان المنافق أن يخفي نفاقه بحركة، بنظرة، بغمزة، وهكذا يرسم حوله هالة زائفة من الصِّدق أمام مخاطبه الذي لا يعرف حقيقته. ولكن، نحن العميان لا يصلنا إلاّ صوت المنافق، وهو صوت بلا مساحيق، كما هو بالضبط، يصل معه الكذب عارياً».

وظل كلاوديو صامتاً، مطرقاً، بقبضتين متوتِّرتين. ثم قال: «هل لاحظت يوماً أنني أكذب عليك أو أنني لا أقول لك كل الحقيقة؟»

فأرسل ماطيو ضحكة. «لا تخف، أنت فتى صريح وصافٍ، نيتك حسنة. لذلك أحب أن أتحدث معك». رفع كلاوديو رأسه وأرخى قبضتيه. ولكن صديقه أضاف: «فقط في مرة واحدة، بدا لي، ليس أنك تكذب ولكن، أنك لا تقول لي كل الحقيقة. حدث هذا تلك الأمسية التي حكيت لي فيها ما حدث للداندي، عندما عثرتم عليه في الحديقة. أكان فعلاً نائماً؟». فأجاب كلاوديو وقد بحَّ صوته: «لا، كان ميتاً. وإذا لم أقل لك ذلك، فليس لأنني لا أثق بك، بل لأننا نحن الأربعة أقسمنا ألا نتحدث مع أحد بذلك» «لماذا تكلمت معي عن الحادث إذن؟» «لأنني كنت متأكداً أنك لن تحدث أحداً بذلك» «آه، ياله من أمر معقَّد! ومع ذلك لم تقل لي كل الحقيقة». «لا، وكنت مخطئاً» «ربما كان من الأفضل ألاَّ تقول لي شيئاً. إن أنصاف الحقائق هي، قبل كل شيء، أنصاف أكاذيب. ولكن لا تخَف. فذلك أمر مضى وانقضى. ثم إني لم أتكلم مع أحد عن الحادث».

في تلك اللحظة، غمز النور الكهربائي غمزته اليومية، عند الثامنة. فقال ماطيو: «الساعة الآن تشير إلى الثامنة، أليس كذلك؟» وفضَّل كلاوديو ألاَّ يبدي أية دهشة. واكتفى بقول: «نعم، ولذلك يجب أن أنصرف. في الحقيقة أنا لم آتِ لأودِّعك تماماً. فهو ليس وداعاً أخيراً. سآتي لزيارتك أكثر من مرَّة». «إذن إلى اللقاء» قال ماطيو، وكأنه يسخر من نفسه.

تنافر طباع

وفي الواقع، كان التغيير الذي عرفه أبي في عمله (حيث عُيِّن مديراً لفندق ممتاز في بوسيتوس)، حاسماً في جعلنا ننتقل إلى المسكن الجديد. رحلنا إلى بونتا كارِّيطاس، شارع أريوستو، بجانب السِّجن. كانت تلك الجيرة الخالية من أي رونق هي التي أسهمت في خفض ثمن الإيجار. ولكن البيت كان كبيراً، ولذلك، ولتحقيق توازن في الميزانية، قرر أبي أن يؤجر غرفة من الغرف التي كانت تطلُّ على الشارع، وكانت مناسبة لهذا الغرض بشرفتها وحمامها الخاص. وبعد قدوم عدة مرشَّحين، لم يتوصل أبي إلى اتفاق مع أيٍّ منهم، استأجرت الغرفة طالبة تدرس فن العمارة، وكانت متقدمة في دراستها. كان اسمها ناطاليا وكانت من التشيلي، وكان لديها خطيب («أو شيء من هذا القبيل»، كما وصفته جوليسكا بلسانها الأفعواني) زميل دراسة كان يزورها تقريباً كل يوم للمراجعة. علاقة جوليسكا وناطاليا كانت سيئة منذ البداية، وبما أن اليوغسلافية أعلنت بوضوح أنها لن تقوم بتنظيف حجرة وحمام التشيلية وأنها لن تُعدَّ لها الطعام، وعندما كانت نطاليا تدخل المطبخ (وكان لها

حق استعماله) لتعدَّ ما تأكله، كانت جوليسكا تنسحب إلى غرفتها وتظل هناك حتى تغادر الأخرى المكان. أمام هذا الصراع، اتخذ أبي موقف الحياد، ولكن جوليسكا كانت تحاول أن تورِّطني وكانت تأتيني كل يوم بإشاعات حول ناطاليا، قائلة لي بإسبانيتها الخاصة: «ليست محترمة، أبداً، ليست محترمة، وهذا الخطيب ليس خطيباً، بل عشيق وسترى بنفسك كيف ستصبح حابِل». وكان كلام جوليسكا الذي يذكِّر المؤنث ويؤنث المذكَّر في كل جملة تنطق بها – والذي صار بالنسبة إلينا، أنا وأبي وأختي، بمثابة لغة عامية تعوَّدنا عليها فصارت جزءاً من لغة التخاطب داخل الأسرة – يجعل ناطاليا تنثني من الضحك ولم تكن تستطيع إخفاء ذلك إلا نادراً. بعد ذلك، عندما كان يأتي الخطيب، إنريكي أو كيكي كما تسميه هي، كانت ناطاليا تقلِّد اليوغسلافية وكانت قهقهات هذا الأخير تصل حتى السجن. ورغم أن جوليسكا لم تكن تعرف أن سبب ذلك الابتهاج مصدره التقليد الساخر لكلامها (فهي، في الواقع، تعتبر أن لغتها الإسبانية لغة أكاديمية)، لم تكن تستسيغ تلك الضحكات بتاتاً، التي تقول عنها إنها ضحكاتُ «ساقطون وسفلاء».

المعاملة الطيبة

في الجانب الآخر للسِّجن، وبالذات في شارع صولانو غارسيا، كان يسكن جدي خابيير وجدتي دولوريس، المريضة الأبدية، بمنزل متواضع يقع بين فناء الكنيسة (نويسترا سينيورا ديل ساغرادو كوراثون) ودكان الفحم «إل بوين طراطو» (المعاملة الطيبة)، حيث دُبِّرت ونُفِّذت عملية فرار روسينيا وموريتي وسجناء آخرين، بفضل النفق الذي تم حفره انطلاقاً من دكان الفحم.

كنت أستمتع بزياراتي لبيت جدِّي. فقد كان يوجد خلف الكنيسة فناء واسع مسدود، يفصله عن الشارع سور من الآجر، وعن مسكن جدّي سياج مرتفع من السِّلك. وهناك كان القساوسة، في يوم الأحد، بعد قُدَّاس الحادية عشرة، يرفعون أثوابهم ويلعبون مباراة كرة القدم مع فتيان الحي، الذين كانوا يأتون إلى الكنيسة للاعتراف وتناول القربان المقدَّس، ليس رغبةً في الارتباط بجسد المسيح، بقدر الرغبة في خوض مباراة لكرة القدم مع كهنة اعترافهم ومرشديهم الروحيين، والذين كانوا، بالإضافة إلى ذلك (وهذا تفصيل لا يجب أن نتغاضى عنه) أصحابَ الكرة. وعندما كنت أشاهد تلك

المباريات، كنت أفكِّر أن هؤلاء الكهنة الذين يتلقَّون الاعتراف، هم بدورهم يجب أن يعترفوا، بما أنهم أثناء اللعب، كانوا يتفوهون بشتائم لم تكن إنجيلية أبداً، وحتى كان من الوارد أن يوجهوا لكمة إلى أنف ذلك المجدِّف الذي يجرؤ على إيقاف هجوم إكليريكي، بكيفية عنيفة. كان القساوسة ينتصرون دائماً، كما هو المفروض، ولكن الفتيان كانوا يستمتعون إذ يرونهم مسرورين باستبدادهم. وأحياناً كان الأكثر جرأة بينهم يقول للقسيس الذي كان مدافعاً في المباراة: «تذكَّر، يا أبانا، أنه عليك أن تدير الخدَّ الآخر». فيجيب القسِّيس وهو يتصبَّب عرقاً: «الخد الآخر أجل، يا مغفَّل، ولكن ليس الرِّجل الأخرى. إذا ركلتني مرة ثانية، سأطردك من الملعب وآمرك بتلاوة «الصلاة الرَّبِّية» عشر مرات و«السلام الملائكي» عشرين مرة».

ولكن، ما من شيء كان يمتعني أكثر من رواية جدي (التي كان يبنيها على رواية جدتي) حول فرار المعتقلين اللاسلطويين من السجن. «جدتك التي تملك حاسة سمع قوية وتعاني من الأرق، كانت تسمع في الليل أصواتاً غريبة في الدكان القريب، وتقول لي دائماً: هؤلاء ليسوا باعة فحم، ولا حتى شيئاً من هذا القبيل. فأرد عليها: أنا رأيتهم بعيني وهم يبيعون الفحم. فتقول: حتى لو رأيتهم يبيعون الخس! أنا لست غبية. هؤلاء لديهم آلة صغيرة وفي الليل،

يصنعون أوراقاً مالية. وسترى. ودافعَتْ عن فرضيتها بعناد كبير. وعندما كانت تأتي شاحنة من آخر الشارع ويملأها أصحاب الدكان بذلك العدد الهائل من الأكياس، كانت جدتك تقول: ألا ترى أنه دكان فحم غريب؟ بدل أن يجلبوا الفحم إليه، يأخذونه منه. لا بد أن هذه الأكياس مليئة بالأوراق المالية المزيفة التي يصنعونها كل ليلة بتلك الآلة الصغيرة التي تحرمني من النوم. فأقول لها لا، إن تلك الأكياس مملوءة بالفحم، لتوزيعه على المنازل هي: هذا أول دكان يوزع الفحم يوم الأحد. ألم تلاحظ أن الشاحنة لا تأتي سوى يوم الأحد؟ وبعد ذلك، اتَّضح كل شيء. لم تكن تلك الأكياس تحمل أوراقاً نقدية مزيَّفة، بل تراباً حقيقياً، ذلك الذي كانوا يستخرجونه لحفر النفق».

كان جدي قد حكى هذه القصة عدة مرات، لكن، بطبيعة الحال، دائماً مع إدخال تغييرات عليها. أظن أنه، في النهاية، كان يخلط بين الحقيقة ورواية جدتي وما هو من وحي خياله. لكن في الحقيقة، في يوم الفرار، كان جدي قد رأى كيف يخرجون من وسط الدكان ويصعدون إلى سيارة تنتظرهم في الشارع الخلفي، أي شارع خواكين نونييس، في مكان أبعد بقليل من المكان الذي كانت تقف عنده الشاحنة أيام الأحد. واستغرب من رؤية أولئك الرجال يخرجون وهم مسرعون وبلا أكياس، لكن، كان لأولئك

الهاربين مبرِّرات لكلِّ تلك العجلة. ولم تتنازل الجدة عن نظريتها حول الأوراق المالية المزيفة: «قد يكونون سجناء» – تقول معترفة – «ولكن لا بد وأنهم قد فروا بالأوراق المالية التي زيفوها طيلة هذه الشهور. لا شك أنهم الآن في باريس، يتمتعون بالحياة في فولي بيرجير، ويصرفون الأوراق التي صنعوها هنا بجانبنا». كانت باريس وفولي بيرجير بالنسبة للجدة أقصى ما يمكن أن يصل اليه الإنسان من رفاهية، ولهذا لم يكن في استطاعتها أن تتصور مصيراً لأولئك السجناء السابقين أفضل من اللجوء إلى ذلك الفردوس الأرضي. وتضيف قائلة: «بعد قضائهم كل هذه المدة في السجن، تصوَّر رغبة هؤلاء المساكين في رؤية سيقان امرأة. وإذا كانت سيقاناً فرنسية، فذلك أفضل بكثير». ثم تمتلئ عيناها الحسيرتان بالحنين: «عندما كنت ما أزال فتاة شابة، كانت خالتي كلوريندا – وكانت مجنونة إلى حدٍّ ما، لكن مليئة بالحماس – تقول دائماً أنني أملك ساقين كسيقان الفرنسيات. ولم تكن هي الوحيدة، فالمرآة أيضاً تقول ذلك». كانت جدتي تعاني من روماتيزم غريب مؤلم، ولكن من الواضح أنه لم يؤثر على لسانها، فقد كانت تتكلم وتتكلم ولا تكفُّ عن الكلام. موضوع دكان الفحم شكَّل رصيد ثرثرتها لخمس سنوات كاملة. وعندما كان الجدُّ يجلب لها الصُّحف اليومية التي تنشر أخبار الفرار والمواجهات التي حدثت لاحقاً بين الهاربين

والشرطة، كانت تلجأ إلى السخرية اللاذعة: «خابيير، كنت دائماً تقول لي إن الصحافة تكذب، تفتري، تشوه الحقائق. كيف إذن تصدق هذه الخرافات؟ هم يقولون كل هذا لأنهم يخجلون من الاعتراف بأن الهاربين يوجدون الآن بباريس، ويستمتعون برقصة الكانكان ويدفعون بفرنكات تشبه تماماً العملة القانونية الفرنسية. اسمع، لو لم أكن كسيحة لكنت رافقتهم. هؤلاء رجال مبادرون، وليسوا مثلك، فأنت دائماً تحب الجلوس، ومخلص لمصيرك الذي يشبه مصير الوتد». ويصمت الجد، برصانة، وإن كنت أعرف بماذا كان يفكر: مهما يكن الأمر، فمن الطبيعي أن تتمنى زوجته (التي لا تتحرك إلا من الكنبة إلى السرير أو من السرير إلى الكنبة) بهذه الحرارة، حياة التَّرحال. ومع ذلك، وعلى طريقتهما، كانا يحبَّان بعضهما البعض، أنا متأكد من هذا. كان جدي مستعداً ليدفع عشر سنوات من عمره من أجل أن تتعافى وتستطيع أن تخرج وتتسلَّى، إن لم يكن في فولي بيرجير، فعلى الأقل في شارع دييسييوتشو، حيث يمرُّ استعراض العربات.

ناس يمرُّون

كان مقرُّ عمل أبي الجديد قريباً نسبياً من مسكننا بِبونتا كاريِّطاس، وليسى الأمر كذلك بالنسبة لثانوية ميراندا، حيث كنت أدرس. كان علي أن أستقلَّ حافلتين أو حافلة وتراماً، ولهذا، وباستثناء الأيام الممطرة أو التي تشتد فيها الريح، فأنا أفضِّل العودة مشياً على الأقدام، عبر شارع سييرا وجاكسون وبوليفار إسبانيا و21 سبتمبر وإيلاوري إلى أن أصل السِّجن، وهو (عسى الشرَّ بعيدا!) محطتي الأخيرة. حتى ذلك الحين، كانت حياتي تكاد تكون محصورة بحي كابورُّو، وربما لذلك كنت أستمتع كثيراً بتلك الرحلة الطويلة من الثانوية إلى البيت، ولم أتبع دائماً نفس المسار، لأنني أحياناً أقطع مسافة لا بأس بها من شارع دييسيييوتشو. وعندما كنت أفعل ذلك، كنت أتوقف لمدة طويلة في زاوية ما وأبقى هناك خصِّيصاً لمشاهدة الناس وهم يمرُّون، باستعجالهم أو لامبالاتهم، كان شيئاً جديداً بالنسبة إلي، بل كان اكتشافاً. فبينما كانوا يتجاوزون عزلتي المزدحمة، كنت أقوم بتسجيل ميزاتهم وهواجسهم في ذهني. النساء يتوقفن منبهرات أمام إغراء الواجهات الزجاجية والموضات الحديثة، ولابد أنهن

يحفظن عن ظهر قلب تفصيلات الأثواب، الألوان، الموديلات، الأثمان، ثم ينطلقن في عجالة، لأنهن قد يصِلن متأخراتٍ إلى مكان ما. أما الرجال فلأنهم أكثر حزماً أو أكثر تعنُّتاً، فعندما يريدون شراء أي شيء، يدخلون مباشرة إلى الدكان أو الوراقة، مفوِّتين عليهم متعة الواجهات بمعروضاتها التي لم يكونوا يضيِّعون وقتهم عليها.

كان هناك الكثير من الطلاب أيضاً، من الجنسين، خاصة عندما كنت أقترب من الجامعة. وعادة ما كانوا يتمشَّون في جماعات، الفتيان يضايقون الفتيات، وهؤلاء الأخيرات، ممسكات بذراع بعضهن البعض، لكي يشعرن بجرأة أكبر، يردُدن على المغازلات الجماعية، والغمزات الفردية بحركات متهكِّمة ووشوشات مفتعلة. أحياناً كان بعض المارة الراشدين يتبادلون النظرات، متضايقين من درس الطيش المفيد ذاك، مساندين بعضهم البعض في ذلك الإحساس بالانزعاج، وآملين ألا يلتقوا فجأة بابن أو ابنة لهم بين ذلك القطيع الصغير من المزعجين، الكثيري الصَّخب والمرح.

ومن مرصدي ذاك بإحدى الزوايا (كنت عادة أختار زاوية ديبسييوتشو وغابوطو) بدأت أتعلم تفاصيل وخصائص السلوك البشري، وتلك النظرة الشاملة تحوَّلت إلى تمرين مثير، بالنسبة لشخصيتي التي لم تكن ناضجة بعد. كنت في ذلك الوقت أقرأ كثيراً، خاصة الرواية. كنت قد أقلعت عن دي أميسيس وفيرن وسلغاري

منذ مدة طويلة وأصبح اهتمامي منصبّاً على اكتشاف الفروق الأساسية بين شخصيات فيكتور هيغو وديكينز ودوستييفسكي وتلك الشخصيات المونتيفيدية الخالية من أية جاذبية، التي كنت أراها أمامي.

خلال فترة وجيزة، أصابتني نزوة حماسية دفعتني إلى أن أقيم مقارنات خيالية بين متسوِّلي عالم الأدب ومتسوِّلي الحياة الواقعية، ولكن، آنذاك، لم يكن يكثر المتسوِّلون بمونتيفيديو. أخيراً عثرت على واحد منهم، كان بلا رِجلَين، وذات مساء، قضيت وقتي أقدِّر كم يكون قد جمع تقريباً من النقود، في تلك الساعات القليلة. ضربت العدد في اثنين أوَّلاً، لأنه كان يتسوَّل خلال فترتين في اليوم، ثم في ثلاثين، لأحصل على الدخل الشهري، وتوصَّلت إلى النتيجة المذهلة، وهي أن دخل ذلك المتسوِّل يفوق بكثير دخل أبي، بعمله كمدير فندق ممتاز. في تلك الليلة بالذات، تحدثتُ مع أبي بذلك الشأن، ولدهشتي، لم أره يموت من الحسد. قال بكل بساطة: «الفرق الأساسي بين متسوِّلك وبيني، ليس هو ما نُحصِّله يومياً أو شهرياً، بل هو أنني، على الأقل، أملك رِجلين، مع الدوالي ومع انعقاف إبهامَي القدم، لكنني أملكهما. هل هذا قليل برأيك؟» لا، لم يكن قليلاً بالنسبة إلي. ولكن متسوِّلي لم يكن يصلح حتى لمقارنته بمتسوِّلي فيكتور هيغو. من الواضح أننا كنا بلداً جدَّ فتِيٍّ وقليل التطور، إذ

لم نكن نملك حتى «بلاط المعجزات»[3]. ومن المفترض أننا لاحقاً سنمشي في طريق التطور، إلى أن نخلق بدورنا تسوُّلاً أصلياً.

أحياناً، في بعض الأمسيات، كنت أغيِّر مساري، فأعود مارًّا بأغراسيادا، روندو، حتى ساحة كاغانتشا، وهو مكان يرتبط في ذهني بصورة فريدة ظلَّت دائماً عالقة في ذاكرتي. خلال ألعاب أمستردام 1928، عندما فاز الأوروغواي للمرة الثانية بالبطولة الأولمبية لكرة القدم، كان كل البلد يتابع تلك المباريات. وفي اليوم الذي كان سيواجه فيه الأوروغواي منتخب إيطاليا، صحبني أبي معه إلى ساحة كاغانتشا. وهناك على السبورات الكبيرة التي كانت تعلقها جريدة «إيمبارثيال»، كانت تُعلَن أهم تفاصيل المباراة: «هجوم الأوروغواي»، «ضربة زاوية لصالح الأوروغواي»، «هدف لصالح إيطاليا»، «رد قوي لمنتخب الأوروغواي»، إلخ. كان المطر يهطل بغزارة ومئات المظلات كانت تشكِّل ما يشبه سقفاً في الساحة المكتظة بالناس. كنت آنذاك طفلاً (في الخامسة أو السادسة من عمري) ولكنني لا أنسى إحساسي بالضآلة تحت ذلك السقف الغريب ولا انتباهي الشديد حتى لا تسقط قطرات المطر التي تنزل من

(3) حي في ضواحي باريس كان، في العصور الوسطى، يقطنه المتسولون واللصوص والعاهرات. وسُمِّي كذلك، لأن كل العاهات التي كان يدَّعيها المتسوِّلون نهاراً، لكسب المال، كانت تختفي هناك، ليلاً، كما لو كان ذلك بفعل معجزة، ويتحدث فيكتور هيغو عن هذا الحي في روايته.

المظلات على حذائي، وهو حذر لا جدوى منه إطلاقاً، إذ أن الحذاء كان، في جميع الأحوال، مشبعا بالماء. في النهاية انتصر الأوروغواي بثلاث إصابات لاثنتين. ولكنني، بالمقابل، ربحت نزلة برد تحولت بعد ثمانٍ وأربعين ساعة إلى أنفلوانزا. حدث ذلك في 1928. أما الآن، فإن إغراءات الشارع أقل فلكلورية. على سبيل المثال: النساء. خاصة عندما كان يحلُّ فصل الربيع. مع بداية الحرارة، كان النساء يبدأن في التخلص من ثيابهن، كما لو كانت حراشف للسمك: بدءاً بالمعاطف والمماطر، ثم السترات والكنزات، بعد ذلك يتخلَّصن من الأكمام الطويلة ويرتدين ملابس بأكمام قصيرة، وفي النهاية، يبقين بلا أكمام ولا جوارب شفافة (يا له من مهرجان للسِّيقان!) وحتى أن بعضهن كنَّ يكشفن أجزاء من ظهورهنَّ الفاتنة.

وكان هذا الظهور المفاجئ لبِشرة النساء (الغضة، الجديدة، البيضاء في البداية، والتي تزداد سمرة مع حلول موسم الشاطئ) يهزني هزاً عميقاً. والغريب في الأمر هو أن الطالبات اللواتي كنَّ على أبواب المراهقة لم يكنَّ يثرن اهتمامي بقدر ما كانت تثيره تلك العاملات الأنيقات ببدلاتهن الرسمية، اللواتي كن يغادرن عند منتصف النهار أماكن عملهن في المحلات، ليقعدن لمدة ساعة، في أحد المقاهى أو في أحد مقاعد ساحة ترينتا إي تريس، يتبادلن الحديث، ويتناولن الوجبة الخفيفة التي أعددنها في بيوتهن. كنَّ

يختلفن في حركاتهن وفي وشوشتهن عن سلوك الطالبات، وكان من ضمن تلك الاختلافات، أن مجموعاتهن لم تكن مختلطة (كانت المحلات التجارية توظف النساء أكثر من الرجال).

لم أجرؤ قط على أن أقترب منهن أو أن أسألهن عن أي شيء (يجب الأخذ بعين الاعتبار أنهن كن يكبرنني بعشر سنوات على الأقل، وأن الجرأة لم تكن من ضمن ميزاتي) ولكنني كنت أستمتع بتأملهن. أظن أنني كنت، بالإضافة إلى ذلك، معجباً بهن لأنهن يعملن ويتقاضين أجراً، وهذان التفصيلان لم يكونا قد دخلا بعد بطاقتي الشخصية. ثم إن اهتمامي لم يكن موجهاً إلى واحدة بالذات، بل كنَّ يثرن اهتمامي كمجموعة.

أعتقد بأن عودتي اليومية عبر تلك الشوارع، من الثانوية إلى البيت كانت بالنسبة إلي بمثابة اكتشافي للحرية. اكتشاف صغير وحرية هزيلة. لكن، شيء أفضل من لا شيء. كان بإمكان رحلتي اليومية أن تستغرق ساعتين أو أربع ساعات، فلم يكن أحد يحاسبني على التأخر الطارئ، ولا حتى جوليسكا. في جميع الأحوال، فأبي يتأخر في المجيء أكثر مني، وكنتُ أنتظره للعشاء. وجوليسكا تعد لنا أطباقاً من بلدها، حيث بدأنا نحبُّ ذلك الطبخ الغريب. وكان أبي يسألني عن الدراسة كأنه يقوم بواجب، وأنا أرد عليه وكأنني أقوم بواجب أيضاً، بمعلومات جد مقتضبة، ومتفادياً أن أشير إلى

تلك الأشياء التي يمكن أن تثير ليس قلقه بالضبط، وإنما (بالأحرى) واجب الإحساس بالقلق.

لا ناطاليا ولا كيكي بطبيعة الحال، كانا يتناولان الطعام معنا. ولكني أتذكر أن ذلك حدث مرة، بصفة استثنائية: وكان ذلك في يوم رأس السنة، ولم تكن جوليسكا موجودة معنا (لأنها كانت قد ذهبت لاستقبال سنة 1939 الجديدة، مع أقربائها الوحيدين الذين كانوا يقيمون بِلاس بيبدارس)، وأعدَّت ناطاليا لنا أكلة الـ «نيوكي» الشهية، وتكلَّف كيكي بالعقبة والنبيذ واشترى أبي الشمبانيا اللازمة، وقضينا نحن الخمسة وقتاً ممتعاً، حقّاً. ولكن أبي، عند نهاية السهرة، اقترح أن نشرب نخب أمي، فبكت إيلينيتا قليلاً قبل أن تذهب إلى فراشها، مستعدة لمواجهة ليلة النوم الأولى للسنة الجديدة.

أحياناً، كنت أفاجئ أبي بزيارة في الفندق الذي يديره، ويقع على بعد خطوات من رامبلا، وكانت به حديقة ذات أشجار عتيقة. هناك، كان أبي يتحول إلى شخص آخر: متحدِّث، كفء وصارم باعتدال، ويجيد التعامل مع النزلاء، الذين هم في معظمهم من بوينوس أيريس. وكان من الواضح أن الطاقم يحترمه، ويُعزُّه أيضاً على ما يبدو. وبصفتي ابن المدير، فقد كنت أحظى أنا أيضاً بقدر من ذلك الامتياز، فكان الندلاء والخادمات وعاملة التلفون يعاملونني

باللطف والكياسة اللتين يستحقهما فتى قد بلغ لتوّه الخامسة عشرة من العمر.

أحياناً كنت أقضي هناك عطلة نهاية الأسبوع، أقرأ تحت إحدى الأشجار، وغالباً ما كنت أجلس عند شجرة أروكاريا، المفضلة لدي. فذلك الهواء المترع برائحة الملح القادمة من الساحل، الممتزجة بعبير أشجار الصنوبر العتيقة كانت تثير فيَّ إحساساً غريباً بالارتياح. وكنت أستغل الفرصة لكي أستنشق ذلك الهواء عميقاً. وأحياناً كنت أضع الكتاب جانباً وأبقى ساكناً، أستمع إلى الطيور وإلى أبواق السيارات التي تتحاور هناك، في لا رامبلا.

كانت تربطني علاقة ودية مع أصغر الندلاء سنّاً وكان اسمه روسيندو، كان مختصاً في القيام بمقالب بريئة مع أكثر من زبون. كان هناك، على سبيل المثال، عسكري أرجنتيني في السبعين من عمره، متقاعد وأصم تماماً. كان يستيقظ مبكراً جداً وينزل إلى قاعة الأكل للإفطار. فيهرع روسيندو إلى خدمته بابتسامة صادقة، ويسأله الجنرال في كل مرة عن طقس اليوم. فيجيبه النادل الذي يحب المزاح: «بيفتيك مع بطاطس مقلية». ويرد الآخر موافقاً: «إذن سأذهب لألبس لفاعاً»، وإذا ما قال له الجنرال: «من فضلك يا فتى، قل للخادمة أن تزيدني مخدة أخرى». كان روسيندو يسأل بكل جدية: «وكيف تريدها يا جنرالي؟ من الشمندر أم من الهليون؟»

ويرد الآخر شاكراً: «تلك الأكثر نعومة»، ويضع في كفه بقشيشاً سخياً، يتلقفه روسيندو، دون أن يؤنبه ضميره البتة. بطبيعة الحال، أخبار هذه الطرائف لم تكن تصل إلى علم أبي. لقد شهدت عدة مرات تلك الحوارات الفريدة من نوعها، وأستطيع أن أؤكد أن أداء روسيندو التمثيلي كان بإتقان المحترف. ولهذا لم يفاجئني أن أراه، بعد عام من ذلك، عضواً في فرقة لمسرح الهواة.

الحروف الأولية

عثرت. ذات مساء، في حديقة الفندق على حرفي ألف، محفورين على جذع شجرة صنوبر، بسكّين أو مطواة، داخل قلب مرسوم بغير إتقان، وسرحتُ بخيالي حول هذين الحرفين الأولين والرفيقين الغابرَين اللذين يشيران إليهما. كان الرسم يبدو قديماً، لكأن الأمطار غسلته مراراً وتكراراً.

قبل أن تتحول تلك العمارة العتيقة إلى فندق، كانت إقامة فاخرة لعائلة ثرية. وربما كان الحرفان ينتميان إلى تلك الفترة. وخطر بذهني أن الألف الأولى قد تعود إلى اسم أرسينيو وأن الثانية قد تكون لأثوثينا. واخترت أن يكون حباً سرياً، أو على الأقل مستنكراً، لِنَقُل حباً بين أبناء عم أشقاء، أو لعل أرسينيو كان الابن الأصغر للأسرة وأثوثينا خادمة مراهقة رقيقة، انتهى بها المطاف حاملاً، وعلى إثر ذلك، طُرِدَت من البيت، رغم الحالة السيئة التي كان عليها أرسينيو، الذي لم يدرك تماماً وجود الطبقات الاجتماعية. ومن الوارد أيضاً أن يكون أرسينيو هو السائق وأثوثينا فتاة البيت المدلّلة. لكن، في هذه الحالة، لم يكن ليحدث الحمل، لأن السائق سيكون جدَّ

مدركٍ للفوارق الاجتماعية (ووسائل منح الحمل) وسيكون واعياً للعقوبات التي قد يتعرَّض لها، بتهمة اغتصاب قاصر من أسرة ثرية.

وهناك أيضاً احتمال آخر: وهو أن الحرف المتكرر يعني تراكماً للعزلة، مثل مرآة مضبَّبة، أي أرسينيو زائد أرسينيو أو أثوثينا زائد أثوثينا، أي رسمٌ لشخص يطلب رفيقاً، ولكن لا يجد إلا رفقة ذاته أو ذاتها، ولذلك خلق قصة حب بمثابة مسوَّدة إحساس، تحمل متعةً، وبقدر ما تجسِّد من لذَّة، تجسِّد كآبة بنفس القدر أيضاً، كما هو شأن مُتَع العزلة عادة. الألِف زيادة على ذلك، هو أول حروف الهجاء، الأصل، الهوية الأولى. والتكرار هنا هو بمثابة إلحاح أو هاجس أو ربما حنين لأصل مجاور، لهوية موازية يمكن الثقة بها إلى درجة إدخالها في القلب ذاته، وهي طريقة رمزية للإشارة إلى عالم واحد، ربما حب واحد؟ كما هو واضح، كنت متخماً بقراءة النصوص الرومانسية وكذلك بالرمزية. التأثير الأول، كان نتيجة لتشكيلة الروايات التي كنت أقرأها. والثاني نتيجة أحاديثي مع زميل لي في القسم، اسمه بيريكو، وهو مهووس بالتحليل النفسي (كان عمه لوحة ثلاثية بمعنى الكلمة: طبيب وعالم نفساني ومحلّل نفساني) ولم يكن يكتفي بالرموز التي اشتهرت لفرويد وأتباعه، بل يضيف عليها رموزاً أخرى باستمرار، من وحيه هو. أُقرُّ بأن إلحاحه كان يصيبني ببعض الملل، ولكن، لا بد أنه قد ترك في نفسي بعض الأثر،

وأنني لم أجد شيئاً أفضل من تطبيق ذلك على الحروف غير المتوقعة، للصنوبرة العجوز.

كان لبيريكو مهارات أخرى أيضاً. على سبيل المثال، كان يقرأ خطوط اليد، ويقرأ الطالع عن طريق بقايا القهوة. ذات مساء التقينا في مقهى «توبي»، قبالة الـ «سوليس»، ولما رأى أنني أوشك أن أنتهي من قهوتي، طلب مني الفنجان ثم قلَبه، كما يقتضي الطقس. تفحَّص البقايا بانتباه وقال لي مبتسماً: «لا تأخذ قراءتي لبقايا القهوة على محمل الجد». فقلت «ولا حتى أنا أعتقد بهذه الأمور بجدية. كل ما هنالك هو أن الألغاز والتنبؤات تجذبني». تأمَّل لوهلة أخرى بقايا القهوة، التي لم تكن تعني أي شيء بالنسبة إلي. «أتدري ماذا أرى؟ امرأة وشجرة». قبِلت التكهن باستسلام، فقد أوَّلتُ بدوري ذلك على أن الأمر، في جميع الأحوال، يتعلق بريتا وشجرة التين.

غرافي الثاني

كانت الحرب العالمية الثانية في شهورها الأولى، لما نشبت معركة ضارية في مياه المحيط الأطلسي بين ثلاث سفن بريطانية (الأجاكس والإيكلس والإكزيتير) والبارجة الألمانية «غراف سبي» ، التي لجأت بصفائحها الحديدية المعوجَّة إلى ميناء مونتيفيديو.

الوصول غير المتوقَّع لبارجة الجيب تلك هزَّ روتين المدينة. وكان أول لقاء مباشر لنا مع الحرب. في ذلك المساء، متاجر كثيرة أغلقت أبوابها مبكِّراً، ليس فقط لكي يتمكن العمال من الذهاب إلى الميناء لإرضاء فضولهم، بل لأن حتى أصحاب المتاجر والمديرين لم يكونوا يريدون تضييع فرصة رؤية تلك الزائرة الخارقة للعادة. ثم إن كثيرين كانوا يريدون التقاط صور للبارجة المهزومة التي كانوا يعتقدون أنها لا تهزم. «النصوص الأدبية التي ستكتب ابتداءً من الآن ستستعمل هذا الحدث كإغراء جنسي». قال لنا أستاذ الأدب في القسم، فسألنا نحن بصوت واحد: «جنسي؟» كأننا جمعية غناء بارعة. «طبعاً. ما أكثر الأشياء التي تجهلونها يا أولاد! ألم ينتبه أحد إلى الرمزية القضيبية، منذ السفينة الشراعية لقصيدة إسبرونسيدا التي يقول فيها «عشرة

مدافع على كل جانب؟»إلى مخزن البارود البحري هذا؟».

هناك سلّمنا بأننا لن نفهم شيئاً، وانصرفنا جميعاً لنشهد ذلك الحدث. كان هناك جمع غفير بالميناء، وظللنا مدة طويلة، نراقب كيف كان زورق ضخم ذو محرك ينقل على متنه ضباطاً وجنوداً من السفينة إلى البَرّ، ومن البَرّ إلى السفينة. والغريب في الأمر، أن الزورق عند العودة كان دائماً أخف. بعد ذلك، وربما بفعل ازدحام الناس، بين مجيء وإياب، أخذنا نتفرق. قضيت أكثر من ساعتين أتفرج على عملية نقل الجنود. تحسَّرتُ لأنني لم أكن أملك منظاراً لأتفحَّص جيداً وجوه وتعابير أولئك الفتيان الذين كانوا يبدأون حياتهم فعلياً بهزيمة. من مكاني البعيد، خيِّل إلي أن وجوه بعضهم كانت تعكس ارتياحاً، ولكني لا أستطيع أن أؤكد ذلك. وسط تلك الحركة الدؤوبة وذلك الذهاب والإياب، تلك البارجة التي فقدت جوفها، تلك الذليلة، الساكنة، والمهيبة رغم ذلك، كانت حضوراً مأساوياً، إعلاناً جنائزيا للحرب البعيدة التي استقرت فجأة هنا، بيننا. «ماذا لو خطر لهم أن يقصفوا المدينة؟» سأل شخص متفائل، وأجابه آخر ظريف: «ولماذا برأيك نملك قلعة السِّيرُّو؟» ولم يجد تعليقه أي صدى.

و لكنهم لم يقصفونا. ونظراً لأن ذاك المشهد أضحى مملاًّ إلى حدٍّ ما، فإن الناس بدأوا يتفرقون. ففي هذا المحيط، سرعان ما يغدو أي

شيء معتاداً، حتى البوارج الألمانية. اقترب شخص بدينٌ على رأسه طاقية، وفي يده قلم رصاص وكراسة – اكتشفتُ أنه صحافي – من شخص آخر طويل نحيف، بهيئة أستاذ: «دكتور، هل أستطيع أن أطرح عليكم سؤالاً بسيطاً؟ كيف تعرِّفُون شِعرياً بارجة الجيب هذه؟» ولم يطرأ على وجه الدكتور المستجوَب أي تغير: «أنا أقول أنه الـ «موبي ديك» الوحيد الذي يمكن أن يخترعه الألمان». وبدت الحيرة على الصحافي، ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل من يكون ذاك الـ «موبي ديك».

بينما كنت أمشي في شارع رينكون نحو ساحة ماتريث، فكَّرت أن هذا هو «غراف» ي الثاني. كانت تفصل منطاد «الزبيلين» وبارجة الـ «السبي» ثمانية أعوام، «غراف» الفضاء و«غراف» الماء. لا ينقصني سوى أن أعرف «غراف» النار.

لم أكن أتوقع أن «غراف» الماء سيتحول إلى «غراف» النار بهذه السرعة. ففي اللحظة التي كنت أعبر فيها الساحة بالذات، سمعت دوي الانفجار. بدا الأمر وكأن المدينة القديمة كلها تهتز وبدا لي حتى أن كتلة الفندق نوغارو تنكمش من الخوف. وكان القبطان الألماني قد قرّر التضحية بالسفينة، قبل انتحاره ببضعة أيام، في فندق بِبوينوس أيريس، بعد أن تدثَّر، ليس بالشعار النازي، بل بالعَلم الإمبراطوري القديم.

بعد ذلك بقليل، دفن جنود البحرية الألمانية موتاهم الذين كانوا الثمن المشؤوم لمعركتهم ضد الإنجليز. وقبل القيام بذلك، ووسط استغراب الجمهور، نظموا استعراضهم بشوارع مونتيفيديو، وهم يردِّدون «كان لي رفيق»، النشيد التقليدي الألماني، تأبيناً للرفاق الذين سقطوا في ميدان القتال. (وممّا فاجأ الجميع هو أن المراسم التي جرت بمقبرة الـ «نورطي» حضرها الوزير البريطاني، أوجين ميلينتون دريك بنفسه، وبِزيٍّ احتفالي).

رأيتهم يمرون من أمامي وأنا واقف بإحدى الزوايا. وسمعت شاباً بجانبي يقول بلهجة أجنبية: «شيء لا يصدق. وجوههم ملائكية، ولكنني أعرفهم جيداً». قال لي أنه يهودي وأن والديه قد تمت إبادتهما في أحد معسكرات الاعتقال النازية، قبل أن تندلع الحرب حتى. أما هو، فقد نجا بفضل قسِّيس كان صديقاً لأبيه.

وأضاف «وراء هذه العيون الزرقاء والوجنات البريئة، بوسعهم أن يخبِّئوا كراهية لا حدود لها». قلت له أنه لا يمكن أن يكونوا جميعاً سواء، وأنه من غير المعقول أن يكون هؤلاء الذين هم أطفال تقريباً سفَّاحين بالقوة». فقال «ليس هناك من هو سفاح بالقوة، أعرف ذلك، ولكن وجود مجنون أو مهووس بينهم، بوسعه أن ينقل إليهم عدوى هوسه وجنونه. وأخطر ميزاتهم هو ذلك النداء الباطني بالعرق السامي. أفضلهم يكتشفون تلك الخاصية في أنفسهم (لأنها

موجودة عندهم جميعاً) فيفكّكونها، يقضون عليها، يستأصلونها كما يُستأصل الورم. ولكن الآخرين، وهم في الواقع الأقل كفاءة والأشد غباء والأكثر غفلة، يتلذذون بإنمائها، لأنهم فقط بهذه الطريقة يشعرون بالثقة في النفس».

انتهى أولئك الفتيان من استعراضهم، وذلك الرجل الذي حكم عليهم بكل تلك القسوة، ودّعني بحركة ثم عبر الشارع. ودخلت أنا مقهى. كانت تلك أحداثاً كثيرة بالنسبة لأمسية واحدة. على أي حال، كان «غراف»ي الثاني أشنع من الأول. لم يكن قد تبقى من ذاك الأول المتنائي سوى جثة الداندي. أما هذا، فقد ترك أمارة مروعة طالت الجميع.

خلال ساعات التوتّر تلك، أخذت تتردّد شائعة مفادها أن الألمان قد أخفوا أسلحة داخل التوابيت. بعد ذلك بعدة سنوات، وصل إلى علمي أنه، في تلك الليلة بالذات، قام مجموعة من الشبان الأوروغوائيين باقتحام المقبرة وانتهاك القبور انتهاكاً، تلك التي كانت قد أُغلِقت قبل ذلك بقليل، لاكتشاف إذا ما كانت التوابيت تحتوي على أسلحة فعلاً. ولكنهم لم يجدوا سوى جثث طرية.

مذنب مسكين

من بين شلة أصدقائي بكابورُّو، لم أكن ألتقي سوى بنوربيرتو، من حين لآخر. في أحد تلك اللقاءات سألته عن تِينَتي المحبوبة، وإذا ما كان يستعملها، إلى الآن، للمرور إلى تلك التي كانت يوماً غرفتي، فأجاب: «هل أنت مجنون؟ الآن تسكن البيت ثلاث نساء عجوزات، لا يمكن احتمالهن! ثلاث أخوات عوانس أو أرامل (فالأمر سيان)، وقد ملأن غرفتك السابقة بأثاث قديم مكسَّر، تفوح منه رائحة كريهة، وبحُزَم جرائد قديمة، ثم إنهن أغلقن النافذة بقفلين اثنين، لكأنهن يخشين أن أسرق منهن تلك القاذورات. والتينة المسكينة الآن كئيبة وأحد أغصانها، عندما يستطيع، يقترب من نافذتك السابقة، كأنه يبحث عنك». شكرتُ لِنوربيرتو تلك «الضرورة الشعرية»: في قرارة نفسي، أعجبني أن تكون الشجرة تشتاق إلي.

حسب ما قاله نوربيرتو، فإن الحي قد تغيَّر كثيراً. فالحديقة تعاني إهمالاً فظيعاً من البلدية، وفي ضواحي المنطقة، أُنشئت معامل مبانٍ صناعية كثيرة، وقد أحدث ذلك تغيراً كبيراً في نوعية السكان، وأفقد

الحي حميميته الجماعية. فملعب ليتو، الآن، يكسوه العشب الذي لم يشذَّب، وأصبح بمثابة مرعى. ولكن، أجل، لقد فتحت حانتان جديدتان أو ثلاث أبوابها، لاستقبال سكان الحي الجدد.

وقد أسرَّ لي نوربيرتو كذلك بأزمة جد شخصية. فقد ابتعد عن الأب ريكاردو، لأن هذا الأخير «ارتكب شناعة في حقه». الأمر يتلخَّص في أن نوربيرتو ذهب ذات ليلة مع مجموعة من أصحابه الجدد إلى بيت دعارة بحيٍّ بانطانوسو، وتركت لديه التجربة إحساساً بالذنب. وبعد ذلك بأسبوع، عندما ذهب إلى الأب ريكاردو للاعتراف، أسرَّ له بذنبه. (وكما كانت تقول جدتي دولوريس، لابدّ لكلّ سرب سمك من صياد). ولم يكتفِ القسيس بالحكم عليه بكفارة ترتيل طنٍّ من الصلوات، بين الصلاة الرَّبِّية والسلام الملائكي (قضى المعترِف المسكين حوالي ساعتين وهو يردِّد صلاة تلو صلاة)، بل إنه ذهب إلى والد نوربيرتو وحكى له القصة، حيث اتخذ على الفور إجراءين جذريين: أخذ منه مفتاح المنزل، وصفعه صفعتين قويتين جعلتاه يحس بخلع في فَكَّيهِ، لمدة ساعات. ثم شرح له، أن الصفعة الأولى كانت بسبب ذهابه إلى بيت الدعارة («ذلك شيء لم يحِن وقته بعد»)، أما الثانية فلأنه كان من الغباء بمكان عندما لم يجد غير الأب ريكاردو ليروي له ذلك. «وهو مفشي الأسرار الجنسية» الأوّل، كما هو معروف عنه وواضح للعيان».

الأمر الذي كان، بالنسبة لنوربيرتو، أبلغ خطورة من الصفعتين الأبويتين، هو ذلك الاكتشاف الأليم بأن سرَّ الاعتراف، على الأقل بالنسبة للأب ريكاردو، لم يكن سوى حبرٍ على ورق. وفي تلك اللحظة، اتخذ قراراً. وتوجه في يوم الأحد التالي، توجَّه إلى الكنيسة وتسلَّل إلى كرسي الاعتراف، وعندما تأكد من أنَّ عدوَّه يجلس خلف شبك النافذة، أطلق عليه وابلاً من التوبيخات المختارة، اشتملت على كلمات بذيئة أيضاً، لمدة عدة دقائق حاسمة، كانت بالنسبة للقسِّيس المصدوم بمثابة تمهيد لحرائق جهنم غير البعيدة. وانتهى الخطاب الشديد اللهجة بهذه الدعوة الصارخة: «والآن أيها القسيس الواشي الدنيء، اذهب وقُل لأبي أنني قلت لك: اذهب إلى الجحيم!». ولكن الأب ريكاردو ظل غارقاً في ندمه، ولم يحرِّك ساكناً.

اليوم لأول مرة، اليوم

كان الأحد يوم عطلة جوليسكا، وعادة ما كانت تذهب فيه إلى لاس بييدراس، لزيارة أقاربها، الذين لم نتعرف عليهم قط. ونظراً للصعوبات اللغوية للسيدة اليوغوسلافية، فنحن لم نعرف أيضاً على وجه اليقين، إذا ما كانوا أبناء عم أم بنات عم، أبناء أخت أم بنات أخت. ومن جهة أخرى، فإن أبي، في يوم الأحد، كان يصطحب معه إيلينيتا التي أصبحت صديقة لبنت في مثل سنِّها (ابنة كبير الندلاء) ونشأ بينهما حب كبير متبادل. أما ناطاليا وكيكي، فكانا يذهبان، عندما يكون الجو مناسباً، إلى أحد الشواطئ حيث يقضيان النهار بأكمله. ولهذا فخلال أيام الأحد الصيفية، كان البيت يبقى تحت تصرُّفي الشخصي، ولم يكن ذلك يحمل أي معنى خاص سوى أن الأمر كان بالنسبة إلي وجها آخر للحرية، وإن كان مختلفاً تماماً عن حرية الشارع.

ذاك الأحد، كنت قد ذهبت إلى سوق تريستان نارباخا. عادة، لم أكن أشتري شيئاً (فلم يكن لدي مال لأفعل ذلك)، لكنني كنت أحب أن أختلط بالناس وأنصت إلى جدالهم الفظّ أو الطريف،

وأتصفَّح الكتب المستعملة (سواء منها المستعملة بعض الشيء أو المهترئة).

وعند منتصف النهار، عدتُ إلى البيت، مستعداً لتناول وجبة الغداء وحدي. فقد كانت جوليسكا، عندما تغيب عن البيت، تترك لنا في الثلاجة طبقاً من أطباقها اللذيذة. توجهت مباشرة إلى المطبخ، حيث وجدت مفاجأة تنتظرني: كانت ناطاليا واقفة هناك عند موقد الغاز، تحرِّك ببطء ملعقة خشبية طويلة، داخل وعاء، بحركات دائرية. كانت ترتدي قميص نوم قصير من نسيج حريري شفاف، أي أنه كان يُظهِر أو يكشف كل شيء. ثم إنها كانت حافية القدمين، مما زاد عندي ذلك الانطباع بأنها عارية. «عذراً» قلت مشدوهاً، «كنت أظن أن البيت ليس فيه أحد». فقالت هي مستمتعة باندهاشي: «لا عليك، أنا أيضاً اعتقدت أنني وحدي في البيت». وحينئذ قامت بحركة بسيطة، لكنني حدست أنها بداية شيء ما: أطفأت النار. كنت ما أزال جامداً في مكاني، عند عتبة المطبخ. تقدَّمت نحوي، وخُيِّل إلي أنها قادمة لمساعدتي. «نحن وحدنا، كلاوديتو، هل انتبهت لذلك؟» بطبيعة الحال، كنت قد انتبهت لذلك. «إنه يوم عطلة الـ «يوغولار»[4] (هكذا كانت هي وكيكي يسميان اليوغوسلافية)، أبوك وإيلينيتا لن يرجعا إلا في

(4) الوريد الوداجي للعنق.

الليل. وكيكي اضطرَّ إلى الذهاب إلى بايساندو لمشكلة عائلية، لا أدري ما هي». كنتُ أردُّ بالإيجاب، والفرحة لا تسعني، من كثرة الأخبار السارَّة.

أخذتني من ذراعي وتوجَّهت بي إلى غرفتها. أغلقت الستائر. نظرت إلي نظرة محدِّقة: «كلاوديو، أنت لم تكن قط مع امرأة، أليس كذلك؟» (وكغبي، لفت انتباهي أنها نطقت كلمة «امرأة» كما ينطقها التشيليون، لأنها تشيلية، بطبيعة الحال) فتمتمت «هل كنت؟» «لا تكن غبياً، أنت تعرف جيداً ماذا أعني» «لا، لم أكن قط». «أتريد أن أعلِّمك؟» كان لخجلي حدود، ولذلك قلت: «أريد». فكَّت أوَّل زِرَّين للقميص وأدخلت يدها تحته، داعبت أحد كتفي ورقبتي وجذبت رأسي إليها وطبعت قبلة سريعة على شفتي. ثم ابتعدت وخلعت قميص النوم الشفاف.

كانت ناطاليا في الخامسة والعشرين من عمرها، وفي عيون فتى مثلي، في السادسة عشرة من عمره، كانت تبدو حتى ذلك الحين امرأة لطيفة ناضجة (كل شيء نسبي)، ولكن عندما بدت عارية أمامي، تحوَّلَت فجأة إلى كائن لا سنَّ له: تحولت إلى «ناريدة»، إلى إلهة الشباب، إلى حورية بلا ذيل، إلى... لا أدري ماذا. من الواضح أن هذه القائمة لم تخطر لي إلا بعد ذلك بكثير، لأن تلك اللحظة الحاسمة من حياتي، لم تكن الأنسب لتذكُّر آثار إغريقية – لاتينية.

«ماذا؟ هل ستظل هكذا؟ أم تريد أن أجرِّدك من ثيابك؟ الساعة الآن الثالثة وعشر دقائق. هل سنستغل الوقت المتبقِّي أم ماذا؟».
أخيراً، عندما أصبحت عارياً أنا أيضاً (كانت المهمة الأصعب هي تخلُّصي من الحذاء والجوربين)، لقد كان منظري مضحكاً حقاً ولكنها، إن لم تضحك، فذلك لأنها، على ما أعتقد، لم تكن تريد أن تثبط عزمي أو أن أعود إلى خجلي، ولكني اكتشفت، مع ذلك، أن عينيها كانتا تضحكان.

في الحقيقة، في تلك اللحظة، لم يكن بوسع أي شيء أن يثبِّط عزمي. بعد ذلك، في السرير، بِرفقٍ وعلى مهل، باشرت هي الدَّرس الأول. وأظنني كنت تلميذا مجدّاً وأظنها كانت مسرورة بتعلُّمي السريع. «كبداية، أؤكد لك أنك ممتاز، كلاوديتو. ستجعل نساءك سعيدات، سترى».

إلى تلك اللحظة، كنت أنا السعيد، لدرجة أنني بعد عشر دقائق طلبت منها، وقد ازدادت ثقتي بنفسي، أن تلقنني الدرس الثاني. «الآن؟» «الآن الآن».

«لم أكن أعرف أنك تسجَّلت في دورة مكثفة. حسناً، ولكن سيكون الدرس الأخير، هه؟ لا تنس أنني امرأة كيكي. إنه هو رجلي». «و ما فعلناه الآن؟» «هذا، قبل كل شيء، عمل تضامني. نحن في التشيلي متضامنون جداً، ومتضامنات. منذ مدة طويلة،

أحسست أنك بحاجة إلى هذا. هذا لأجل تكوينك، هل فهمت؟ واليوم، كانت الفرصة سانحة. لقد كتب لنا الرب أن نبقى وحدنا. والرب كذلك يحب أن نذنب، ولكن أن نذنب بابتهاج. لكي يغفر لنا بابتهاج أيضاً. ثم إن هناك ذنوباً مهولة وذنوباً رائعة. وذنبنا نحن كان رائعاً، أليس كذلك؟» سألتها إذا ما كانت كاثوليكية. «طبعاً. ولكن كاثوليكية حرة. لِنقُل، أتفاهم مع الرب مباشرة. دون حاجة إلى قساوسة وسطاء، يأخذون نسبتهم منك على شكل صدقات وصلوات».

وكان الذنب الثاني أروع من الأول. كنت قد اكتسبت خبرة أكبر. بعد ذلك، بقيتُ أتأملها بعينين يملأهما الحنان. ولكنها نظرت إلي نظرة جادة: «آه، لا يا كلاوديتو، لا ترتكب خطأ الوقوع في حبي، لا، يجب أن تعدني بهذا. سأكون صديقتك، هذا، نعم». سألتها محاولاً أن أصمد أمام نظرتها: «ألم يعجبك ما فعلناه؟» «طبعاً أعجبني. لأنك تعجبني. لو لم تكن تعجبني لما فعلنا شيئاً. ولكن لا تنس أنني أحب كيكي». «وهو يضاجعك؟»

«طبعاً يضاجعني. والآن، ارتدِ ملابسك واذهب إلى غرفتك. لأنه، إذا جاءت الـ «يوغولار» (مع أنني لا أظن، فمازال الوقت مبكِّراً) فستشكوني للشرطة، بتهمة تحريض القاصرين على الفساد».

عندما استلقيت على سريري، بعد كل تلك الإثارة، أحسست فجأة بارتخاء شديد واستغرقت في النوم، بعد قليل. آخر شيء فكرت فيه كان هو: «لحسن حظي، على عكس نوربيرتو، ليس لدي أي كاهن اعتراف أحكي له زلَّتي. وبالمناسبة: هل يعيش الأب ريكاردو المسكين بلا زلات؟».

في جميع الأحوال، أعتقد أن ناطاليا حكت لكيكي عن لقائنا الحميم. وأكثر من ذلك: أظنها فعلت كل شيء بموافقته. وأظن ذلك، لأنه ابتداء من ذلك اليوم الذي لن أنساه، بدأ كيكي يوجِّه لي ابتسامات هي مزيج غريب من التواطؤ والمعاني الضمنية والسلوك الأبوي الساخر، بالإضافة إلى عنصر إضافي كان معناه التقريبي هو: «آه، ولكن لا تنس أيها الصبي أنني صاحب ذلك الجسد الجميل». لسوء الحظ، لم أكن أنسى ذلك.

وأخذت أتعوَّد شيئاً فشيئاً على علاقة الصداقة الصِّرفة بيني وبين ناطاليا. ورغم ذلك، فقد كنت أحلم بها مراراً، وكانت الشراشف تعاني التَّبعات، طبعاً. ولم أكن أسلم من مراقبة جوليسكا: «أنت تركَ الشراشف جدُّ وسخٍ بالقذار. نصيحٌ لك: من الأفضل أن تذهب مع «العُهّار». وهنا كنت أبادر بالتصحيح: «جوليسكا، من فضلك، العاهرات، لا العهّار». فتردُّ: «أنت يعلم».

كان في كلام جوليسكا شيء من الصواب. لكن تجربتي الأولى

مع ناطاليا كانت مجيدة، ولم أكن أريد أن أمحوها بأي نسخة مقلَّدة. ثم إن المصروف الأسبوعي الذي كان يمنحني إياه أبي لم يكن يسمح بهذا الإسراف. وأخيراً: تلك «الأوكار» لا ترحِّب بالقاصرين مثلي.

وجدير بالذكر أن الاستمناء كان يعتبر (من طرف الآباء والأطباء والقساوسة وعلماء الاجتماع، إلخ.) رذيلة ذات عواقب رهيبة: فهو يتسبب في السل وفي العجز الجنسي والأبناء المتخلِّفين عقلياً، وهلمَّ جرا. ولكن هل هناك من حل آخر؟ فأولئك الآباء والأطباء والقساوسة وعلماء الاجتماع الذين يُدينون تلك الممارسة بشدة، هم أنفسهم كانوا يدأبون على ممارسة الاستمناء، خلال مراهقتهم البعيدة، دون أن يصيبهم لذلك السل أو العجز الجنسي. هذه أيضاً كانت نظرية بيريكو، مستشاري الموقَّر في التحليل النفسي والرمزية، والذي كان مع ذلك يضيف: «أنا، على أي حال، أفضِّل بيوت الدعارة. فلديها أفضلية واضحة على المتعة الفردية وهي أن الإنسان يمكن أن يتحدث ويكسب صداقات. كما أعرف بعض العاهرات اللواتي هن بمثابة أخوات لي، أو على الأقل خالات. حتى أنني أحلل شخصياتهن أيضاً، هن مجنونات الحياة. لا تُسِئ الظن. أعرف أنهن «مجنونات» و«نساء الحياة» كما نسميهن عادة، ولكن عبارة «مجنونات الحياة» (وهي عبارة ربما تعود إلى حرفتهن الضاربة

في القدم) تشتمل على عنصر الفرح أو المتعة. وقد تعلمت منهن شيئاً واحداً: بما أنه من السهل أن تتحول حرفتهن الجسدية إلى روتين بالنسبة إليهن، فإن متعتهن الكبرى تصبح هي المتعة الروحية. عندما يتسلَّين بسبب دعابة جيدة أو يضحكن من سخرية بارعة أو يبدي لهن أحدهم صداقة ليس وراءها مصلحة خاصة أو يحيطهن بعبارة غزل مختلفة، عيونهن تعكس أن تلك هي لذتهن المفضلة: ذروتهن الروحية. وهن يشكرن ذلك أحسن شكر. أحياناً، بعد ذلك، عندما ندخل في عمق الموضوع، لا يقبَلن بأخذ أي شيء. ولكني، مع ذلك، أدفع لهن، كيف لا!».

فوز برتبة الفروسية

أول إضراب في حياتي ترك لي ندوباً. على العموم، لم تكن تهمني كثيراً مشاكل التعليم. ولكن اتحاد الطلاب الجامعيين للأوروغواي كان قد قرّر إضراباً لمدة يومين، وطلاب التعليم الثانوي ساندوه، أما أنا فلم أسأل حتى عن السبب. فقط فكرت: بما أنني لن أذهب إلى الثانوية، يمكن أن أستغل الفرصة لإعادة مجموعة كبيرة من الكتب لبيريكو، التي كان قد أعارني إياها في الشهور الأخيرة. كان بيريكو يسكن على بعد بضع بنايات من شارع ميراندا، فوضعت كتباً لفرويد ويونغ وأدلير في المحفظة التي أحملها معي كل يوم إلى الثانوية، ووضعت كتباً أخرى في كيس وركبت حافلةً، ثم نزلت وركبت أخرى، لأنزل أخيراً في شارع ليخيسلاتيبو.

كنت أتوجه ببطء (فالكتب ثقيلة) نحو شارع سييرا، عندما لمحت من بعيد وجه طوماسيتو روبليس، الذي لا يمكن ليشتبه على أحد، وكان يُعرف بلقب «البطل» (لفوزه ببضع منافسات في ألعاب القوى لفئة الصغار). أومأ إلي من بعيد، ثم أخذ يقترب. كان «البطل» رياضياً جيداً ولكنه ليسى طالباً جيداً. وهو يكبرني

بسنتين، ولكنه كان يعيد السنة الرابعة في نفس القسم الذي أدرس فيه. كنا نعتبره شيوعياً وكان عنصراً فعَّالاً في تنظيم التوقفات عن العمل والإضرابات والاحتجاجات والمظاهرات،... إلخ.

انتظرته وأنا أحمل الكتب، ولكنه عندما وصل أخيراً وصار أمامي، صاح بي: «أيها الخائن! تريد أن تفسد الإضراب!» وبدون مقدمات، سدَّد لي ضربة هائلة أصابت خدي الأيمن، الذي التهب في الحال، كأنه فانوس.

وأنا أنحني لترك حمولة الكتب على الأرض، صحت به: «ولكن يا بطل، ما بك؟ أجننت؟ أنا لست خائناً!» «آه، لا؟ إلى أين أنت ذاهب بكل هذا؟ ألست ذاهباً إلى المدرسة؟» «لا، يا بطل، أنا ذاهب لأعيد بضعة كتب لبيريكو كان قد أعارني إياها، وهو يسكن قريباً من هنا». وأريته حمولتي ليتأكد أنها ليست مراجع نستعملها في القسم. واحمر وجه توماسيتو، وقال لي وهو يكاد يبكي: «سامحني، كلاوديو». ثم قال ثانية: «سامحني. كيف فعلت ذلك، مع كل الحب الذي أكنُّه لك، وأنت تغشِّشني دائماً في الامتحان؟ سامحني، كلاوديو، أرجوك سامحني». وسامحته، طبعاً، رغم أن خدي الأيمن كان ما يزال يبعث إشارات كمنار الـ «سيرُّو».

وأصرَّ إصراراً كبيراً على أن يدعوني إلى بيرة على حسابه، فذهبنا إلى حانة ألمانية خلف البالاسيو. هناك، وكدليل على ثقته بي، حكى

لي قصته. كان أبوه يضرب أمه كل يوم. «وهي ماذا تفعل؟» «هي تبكي، تبكي فقط». «وأنت؟» «أنا أمسك أبي من ذراعه وأحاول إبعاده عنها، ولكنه يضربني أنا كذلك ويطرحني على الأرض» «ولكن، طوماسيتو، لأي شيء يصلح هذا الظهر الذي أعطاك الله؟» «أبي أقوى مني بكثير. ثم إنني لا أستطيع ولا أريد ضربه، أنا فقط أحاول أن أمنعه من أن يضرب أمي». «ولماذا يضربها؟» «هو يقول أن أمي كان لديها عشيق (هو يسميه «حبيب») قبل حوالي عشرين عاماً وحتى أنه يشكُّ في أنني لست ابنه (وهذا لا يقوله إلا عندما يأتي سكران). لستُ ابنه! كيف يقول هذا؟ وهو يرى أننا نتشابه كثيراً، لن أقول في هذه الحالة، مثل قطرتَيْ ماء، ولكن، أجل، مثل قطرتَيْ كونياك. لذلك أجد صعوبة في الاهتمام بدراستي. كما بإمكانك أن تتوقع، في هذا الجو، لا أستطيع التركيز».

دفع ثمن البيرتين واقترح علي (وقد تأكد الآن أنني لست خائناً) أن نذهب إلى الثانوية. ذهبنا أولاً إلى بيت بيريكو وأعدت له كتبه، فقد صار لدي الآن دافع آخر لفعل ذلك وهو ألا أترك شكوكاً باطلة أخرى تحوم حولي. ونظر بيريكو بذهول إلى خدي، ولكنه لم يقل شيئاً.

أمام الثانوية، كان هناك حوالي مئتي طالب يرددون شعارات ويرمون أحجاراً من حين لآخر (أصاب أحدها زجاج نافذةٍ،

ففكرت في التيار الهوائي الذي سيدخل من هناك، في فصل الشتاء). كانت حركة السير متوقفة وكانت تُسمَع حفلة موسيقية حقيقية يحييها جوق أبواق السيارات. وفي تلك اللحظة ظهر الفرسان المُدرَّعون، بنيَّتِهم الطيبة في تفريقنا. فجرى جميع الطلاب كأنهم ظباء والت ديزني، ولكن يبدو أنني كنت أجري كسلحفاة الخرافة المشهورة لِسامانييغو، لأنني أثناء الفرار، أحسست بضربة قوية على ظهري بالإضافة إلى قميصي الذي تمزق من الخلف. وبما أنني لم أعد أرى بيريكو ولا طوماسيتو، قررت الرجوع إلى بيتي الجميل السعيد، ووصلت بحالة يرثى لها، حالة محارب عتيق قادم من حرب عظمى.

ولحسن حظي لم تكن في البيت غير جوليسكا، التي اتسعت عيناها من الدهشة عندما رأتني في تلك الحالة: «ولكن أنتَ كثيرٌ متدهورة! دعني أضع لك ثلجة!». لفَّتْ قِطَع الثلج في منديل ووضعته على خدي النابض بالألم. ثم جاءت بقميص نظيف ومرهم للكدمات دهنَته على مكان تلك الضربة التي أصابت ظهري، والتي تذكِّر بذلك الطقس الذي يُمنَح من خلاله المرء رتبة الفروسية، والذي، في حالتي تلك، لم يكن وقوراً البتة.

عندما عاد أبي متأخراً، كنت أنا قد ذهبت إلى السرير. لكن في اليوم التالي، وبينما نحن نتناول وجبة الإفطار، رفع نظره عن

الجريدة للحظة وسألني: «ماذا جرى لك في وجهك؟ هل لدغتك نحلة مرة أخرى؟» «نعم، لا بّد وأنها نحلة». «لا أدري. من خلال الانتفاخ يبدو لي وكأن اللسعة لسعة دبور. أو لعلها نملة عملاقة».
قلت «ربما»، بيقين المختصّ في علم الحشرات.

فتاة التينة (2)

لكلٍّ منا عاداته الغريبة. أنا كنت مولعاً برسم موانئ الساعات. وفي كثير من الأحيان، في القسم، وبينما أستاذ الفلسفة منهمك في الكلام عن ظاهراتيّة الروح لهيجل، والملل مهيمنٌ على جميع تلاميذ حِصّة الساعة الرابعة، وبينما تلاميذ آخرون يرسمون طيوراً أو بطات أو نجوماً خماسية أو سداسية، أو بشكل خاص، نساء عاريات، كنت أنا أرسم موانئ ساعات، ودائماً بأرقام رومانية. وعند رسم العقربين، كانت ساعتي المفضلة هي الثالثة وعشر دقائق، وهي ساعة هامة في مسيرتي القصيرة. في الثالثة وعشر دقائق عثرنا على جثة الداندي، وفي الثالثة وعشر دقائق توفيت أمي، وفي الثالثة وعشر دقائق دخلت ريتا غرفتي في كابورُّو، وفي الثالثة وعشر دقائق، كانت تجربتي الأولى مع ناطاليا.

لم أكن يوماً متطيِّراً، ومع ذلك، عندما كانت تحين تلك الساعة كل يوم، كان يتملّكني التوتر وأبقى مترقِّباً، كأن شيئاً غير متوقع سيحدث فجأة. لم يكن يحدث أي شيء عادة، أو يحدث شيء لا أهمية له (كأن يُسمع بوق سيارة بعيد أو طرقٌ على الباب أو تشرع

كلاب الحي في النباح)، ولكنه كان يكتسب بالنسبة إلي أهمية مصطنعة. وإذا ما كنت أنام القيلولة، كنت أفيق في تلك الساعة مرتاعاً أو إذا ما ظللت نائماً، كنت أنغمس فجأة في حلم غريب أو كابوس مريع. في المقابل، الثالثة وعشر دقائق ليلاً لم تكن لها أية أهمية إطلاقاً: الساعة الحاسمة كانت هي الثالثة وعشر دقائق مساءً.

أنهيت دراستي الثانوية بلا عراقيل كبيرة. ،بنتائج لم تكن لامعة بتاتاً في المواد العلمية (ماعدا الرياضيات، وهي مادة سحرتني منذ البداية) وأكثر من جيدة في الأدب والتاريخ والرسم. كان هدفي هو أن أتكرس لدراسة الرسم، بدل أن أسجِّل بالمرحلة التأهيلية للجامعة. «حسناً، – قال أبي – ولكن إذا كنت ترغب في ذلك، فيجب أن تبحث لك عن عمل. فأنا لا أعتقد أنك كرسّام ستستطيع أن تكسب قوت يومك مستقبلاً». تحدَّث هو مع بعض أصدقائه وبعد فترة غير طويلة، بدأت أعمل كمساعد بسيط في «دومينو ش. م.»، وهي وكالة إشهارية معروفة. وبعد شهرين بدأت أساهم في نسخ تصاميم بطريقة شبه آلية، تصاميم من إنجاز آخرين، ومن حين لآخر، في إنجاز تصاميم لي، ولكن بسيطة للغاية وغير طموحة إطلاقاً.

هذا يعني أنني في السابعة عشرة من عمري، كان لدي ما يكفيني لمصاريفي: لشراء كتب، للذهاب إلى السينما، لحضور حفلة راقصة من حين لحين، وخاصة لشراء ورق للرسم وطباشير شمع وألوان

مائية وفُرَش لرسومي التخطيطية الخاصة، التي كانت توجد بينها، كما هو متوقّع، ساعات كثيرة.

وذات مساء، كنت أتناول قهوتي بمقهى سبورتمان، فأخرجت من محفظتي كراسة وبضعة أقلام رصاص. وبينما أنا أفكر في تصميم كلفتني الوكالة بإعداده ليوم الإثنين، بدأ قلمي بكيفية تكاد تكون مستقلة عن إرادتي، برسم ميناء ساعة. وكنت قد رسمت الأرقام الرومانية الاثني عشر عندما سمعت أحداً بجانبي يقول «كلاوديو».

قبل أن أنظر إلى صاحب الصوت (أو صاحبة الصوت، بالأحرى)، عرفت أنها ريتا. أخذَتْ وجهي بين يديها وقبّلتني على خدِّي، عند زاوية الشفتين. كانت قبلة قادمة من الماضي. لم أكن أستطيع التصديق. عيناها الخضراوان اتخذتا الآن لوناً غامقاً، الشعر الكستنائي مسترسل على كتفيها، وفي ذراعيها العاريتين منطقة كساها نمش، بدا لي شيئاً رائعاً. ماتزال نحيفة ولكن جمالها (وقد صارت الآن امرأة كاملة) أصبح الآن أكثر إحكاماً، دون أن تفقد هالة الرهافة تلك التي تربطها بريتا الأخرى التي تسللت قبل أعوام (تُرى كم عاماً مَرّ؟) من تينة نوربيرتو إلى غرفتي في كابورُّو.

في البداية، كنا نقاطع بعضنا بعضاً بالأسئلة. نعم، هي ماتزال مقيمة بقرطبة وتعمل مضيفة في شركة للطيران، ولذلك تسافر

باستمرار، داخل الأرجنتين وفي رحلات خاصة إلى بلدان أجنبية. أبواها يقيمان بـ «سانطا في»، وهي تعيش مع أخت لها أكبر منها، متزوجة، مهندسة معمارية، وعلاقتهما ببعض طيبة. هذا جزء من المعلومات القليلة التي استطعت أن أنتزعها منها، لأن وابل الأسئلة الذي أخضعتني إليه لم يكن يكاد يسمح لي بطرح أسئلتي، ولكنها أخيراً أعطت نفسها، وأعطتني مهلة، فتمكَّنتُ من إلقاء السؤال الأساسي: «هل رأيتِ نوربيرتو؟» «نوربيتو؟» «نعم، ابن خالتك الذي يسكن بكابورُّو». تردَّدتْ لحظة ثم أطلقت قهقهة: «نوربيرتو ليس ابن خالتي. بكل بساطة، لقد استعملت اسمه فقط كتمهيد، لأكسب ثقتك، في ذلك اليوم». ولكنني لم أقتنع تماماً. «وكيف تسلَّلتِ إلى غرفتي عن طريق تينة نوربيرتو؟» « فتنهَّدَت، وازدادت جمالا: «القصة بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه: كنت أقضي بضعة أيام في بيت أصدقاء لأختي، وهم بدورهم جيران لنوربيرتو، وكانوا يتحدَّثون بقلق عن مرض أمك وموتها الوشيك، وكذلك عنك أنت وعن أختك الصغرى، فأحسست برغبة هائلة، لا في أن أواسيك، بل في أن أكون معك، أن ألمسك، أجعلك تحس بحناني، وهذا هو ما نحتاج إليه في مثل هذه اللحظات. لا أدري إن كنتَ تتذكر أن فناء نوربيرتو كان ينتهي بممر صغير يفصل بيته عن بيت أصدقائي. حسنا، ذلك الممر كانت به بضع لبِنات بارزة، بحيث يسهل النزول

أو الصعود منه. عبر ذلك الطريق، وصلت إلى التينة ومن الطريق ذاته، عدتُ أدراجي». «وماذا لو كان رآك أحد من أسرة نوربيرتو؟» «أف! شغب طفلة! هذه الأشياء عادة ما تعتبر عادية، ولو أن الأمر قد يكلِّفك صفعة أحياناً. لا شك أنني الآن لا أستطيع أن ألجأ إلى عذر كهذا، ولكن الحقيقة هي أنه لم يرني أحد. فقط أنت». كنت في أعماقي أريد أن أقتنع، ولذلك تنفست الصُّعداء، كما لو أنني حبستُ تنفسي طوال كل تلك السنوات.

ثم سألتني «هل استطعتَ أخيراً تقبُّل وفاة أمك؟» فأجبت «وهل من حلٍّ آخر؟» «الموت ليس أمراً خطيراً كما نظن، كلاوديو». «كيف ترينه أنتِ؟» «أراه كحلم متكرِّر، ولكن ليس حلماً دائرياً، بل تكراراً لولبياً. كلما مررت ثانية بالحدث نفسه تراه من زاوية أبعد، وهذا يجعلك تفهمه بشكل أفضل». وبما أن هذا التفسير كان يتجاوزني، فضَّلتُ تغيير الموضوع. «وأين أنتِ مقيمة الآن؟» «في وسط المدينة بالذات: في ميرسيدس إي إخيدو» «هل بإمكاني أن أزورك هناك؟» فكَّرَت لحظة، بشفتين مزمومتين ونظرة غائبة، ثم قالت: «تعال غداً. سأكون وحدي. سأكتب لك العنوان هنا: ميرسيدس 1352». «شقة؟» «لا، بيت. جميل جداً، سترى».

رأت الساعة التي كنت أرسمها والتي كان ما زال ينقصها العقربان. فسألتني: «هل بإمكاني أن أكمل رسمك؟» فوضعَت

كتاباً أمام الورقة، لكي لا أرى ما الذي كانت ترسمه. ثم قلبت الرسم وأعطتني إياه. «تعال غداً، في الساعة التي رسمتها لك هنا. ولكن خبّئه الآن. تستطيع أن تراه بعد ذهابي».

خرجنا من المقهى، تمشينا قليلاً ولكننا لم نتجاوز شارع دييسيبيوتشو. في خضم تلك الانفعالات، لم أنتبه إلى أن السماء كانت قد أصبحت غائمة، وفوجئت عندما بدأ المطر يهطل ثم به يزداد هطولاً. عدونا بضعة أمتار ولكن الأمطار صارت طوفانية. لم يكن بوسعنا الرجوع إلى المقهى، فلجأنا إلى مدخل عمارة، كان أكثر عتمة من الخارج. وبما أن الماء كان يصل إلينا هناك، توغلنا أكثر في المدخل. لم يكن هناك أحد، فأخذت هي يدي وقرّبتها من شفتيها المبلّلتين وقبّلتها مراراً. كانت العتمة في الداخل ورداءة الطقس يحميانا من العالم. ضممتها إلى صدري بكل الحنان الذي بوسعه أن يملك من ظل أعواماً يرعى ذلك الغياب.

تبادلنا القُبَل طويلاً، وتعانقنا كثيراً. أحسستُ أنني في جنة الفردوس وكان لابد أن أفكّر في اليوم التالي وفي بيت شارع ميرسيديس. لم يعد مهمّاً إن كان المطر مازال يهطل أو إن كان قد كفَّ عن الهطول. أدركنا، من جديد، أن العالم موجود فقط عندما قال لي أحدهم، عند قفاي تماماً، بصوت جافٍّ وهو يقاوم استياءه: «عن إذنكما، أيها الشابان»، لكي نسمح له بالوصول إلى المصعد.

تمتمنا معتذرين، وحينئذ فقط شاهدنا الشمس في الخارج. نظرت ريتا إلى الساعة – الإسورة التي بمعصمها، وقالت وهي تكاد تصرخ: «تأخرتُ. يجب أن أسرع لأصِل». سألتها: «إلى أين؟» وأنا مرتبِك قلِق. فقالت من جديد: «يجب أن أسرع لأصِل. غداً نلتقي. لا تنس. إلى اللقاء». وقبّلتني قبلة أخيرة خاطفة، قبل أن تنطلق راكضة في شارع ديسييوتشو، باتجاه الساحة.

عدتُ إلى البيت مشياً على الأقدام. كنت أريد أن أراجع وحدي لقاءنا من أوله إلى آخره، على مهل. إذن ريتا ما تزال موجودة. ماذا لو ذهبتُ أنا إلى قرطبة؟ ولِمَ لا؟ أم أن لديها خطيب أو زوج أو شيء من هذا القبيل؟ لماذا لم أسألها؟ عندما وصلتُ إلى شارع أريوستو، حييتُ إيلينيتا وجوليسكا تحية خاطفة، وانزويت في غرفتي التي لم تكن، لسوء الحظ، تطلُّ على أية تينة ولا كانت بها حتى نافذة.

بحذر شديد، أخرجت من حقيبتي الورقة التي رسمت عليها ميناء الساعة. كان العقربان اللذان رسمتهما ريتا يشيران (وأي ساعة أخرى كان بإمكانها أن تكون؟) إلى الثالثة وعشر دقائق. ولكن كان هناك تفصيل آخر: كان عقرب الدقائق الذي يشير إلى الرقم اثنين، بشكله الروماني، عبارة عن رسم لرجل صغير عارٍ، بينما عقرب الساعات الذي يشير إلى الرقم ثلاثة كان على شكل امرأة صغيرة عارية أيضاً. والرجل – عقرب الدقائق يوشك أن يغطّي المرأة –

عقرب الساعات. «ساعة موعدنا في الغد!» هتفتُ مبتهجاً، ابتهاجَ عقرب دقائق. في اليوم التالي وقبل أن تحين الساعة الثالثة وعشر دقائق، كنت في شارع ميرسيديس إي إخيدو. كلما كنت أقترب من المكان، كان يعتريني خوف أكبر، كاد في النهاية أن يتحول إلى ذعر. وسرعان ما تحول شكّي إلى يقين: الرقم 1352 لا يوجد.

خلال شهر بأكمله، تردَّدت كل يوم على مقهى سبورتمان، وفي نفس الساعة التي كان يهطل فيها المطر، ولكن ريتا لم تأتِ من جديد. وبعد ستة أشهر، اشتريتُ علبة مراقم جديدة ورسمت لوحة: كانت عبارة عن ميناء ساعة بأرقام رومانية، برجل صغير يمثِّل عقرب الدقائق وامرأة صغيرة تمثِّل عقرب الساعات، والعقربان يشيران إلى الثالثة وعشر دقائق. عنونتها «ساعة الحب» ووضعت عنواناً صغيراً آخر: «تكريماً لريتا». وفزت بالجائزة الثالثة في المعرض الأول للرسم بالمراقم، ولكن الشخصية المؤبَّنة لم تستجب لندائي الذي كان نداءَ «حبّ هندي».

في الوكالة، تلقيتُ التهنئات وكان رئيسي فخوراً «لأن بين موظفيه في الوكالة يوجد فنان مكلَّل بالغار» (هكذا قال حرفياً)، ومن ثم رفع أجرتي وبدأ يكلِّفني بمهام تتطلب إبداعاً ومسؤولية أكبر.

مرحباً سونيا

عندما توفيت أمي، كان أبي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، وعندما تزوج من جديد كان في الثالثة والأربعين. كنت أفكِّر دائماً أنه سيفعل ذلك: فأبي رجل لا يمكن أن يبقى دون زواج. بعد شهور قليلة من موت أمي، عندما كنا ما نزال بكابورُّو وقرَّر هو تغيير ليس المسكن فحسب بل الحي أيضاً، كان قد أعلن أنه يريد أن يضع حدَّاً، وبصفة نهائية، لذلك الحداد، كان «يريد أن يعيش من جديد».

لا أدري هل هو الذي اختار سونيا أم هي التي اختارته. تميز أبي دائماً بطبع خاص جدّاً وذوقُه فيما يتعلق بالنساء يشمل حيزّاً ضيقّاً ومتشدِّداً في شروطه. وقد عرف تلك التي ستصبح زوجة أبي مستقبلاً في مكان عمله: فندق بوسيتوس. ولأسباب مهنية، كانا قد التقيا مراراً خلال السنتين الأخيرتين. فقد كانت سونيا تعمل بوكالة سياحية وكانت تذهب إلى الفندق لتتفق مع أبي حول تفاصيل الزيارات القادمة للأرجنتينيين أو البرازيليين الذين كانوا يأتون لقضاء بضعة أيام بمونتيفيديو، ثم يواصلون رحلتهم إلى بيريا بوليس أو بونتا ديل إيستي. وخلال الأيام التي كان يقيم فيها

السياح بالفندق، كانت سونيا تذهب كل يوم إلى هناك، لتتأكد إذا ما كان كل شيء على ما يرام أم هناك، على العكس، من يشتكي. كانت أيضاً ترافقهم كمرشدة سياحية لزيارة أهم المعالم، للذهاب إلى الشواطئ أو الكازينوهات أو – أحياناً أخرى نادرة – إلى المتاحف القليلة الموجودة.

كانت تصغر أبي بحوالي عشر سنوات، وأظنه اكتسبها لكفاءته وسهولته في التعامل مع الآخرين وليس لكونه رجلاً وسيماً ناضجاً. لا أنكر أن لِسونيا جاذبية غريبة: وجه نحيل، وجنتان بارزتان، فم كبير يبتسم بسهولة، عينان قاتمتا السواد، عنق دقيق، ساقان متينتان، شعر بخصلة شابت قبل الأوان، لطافة غير صاخبة ولا متطفِّلة، لا تُكتَشف إلاَّ بعد اللقاء الرابع أو الخامس.

عندما أعلن لنا أبي بأنه سيتزوج في ذلك الصباح (وكان يفضِّل دائماً إعلان قراراته الهامة في المطبخ)، كنت قد لاحظتُ أن ثمة تغيُّر قد طرأ عليه. فهو لم يَعُد يقرأ الجريدة أثناء الإفطار، صار أكثر مرحاً، وأصبح يهتم بتفاصيل متعلقة بعملي ويمازح جوليسكا.

سألني عن رأيي في الموضوع. كنت قد تعرَّفت على سونيا وكنا نستلطف بعضنا البعض. قلتُ: «يسرُّني ذلك. وأتمنى أن يحالفك الحظ». لكنه أحس بأنه مضطر لإعطائي توضيحات. «لن يكون الأمر كما كان مع أمك. لقد تزوجنا ونحن في عزّ الشباب وذلك

شيء لا يتكرر. وإذا كنت سأتزوج ثانية فهذا لأن زواجي الأول كان ناجحاً، أليس كذلك؟»

لكن لم يكن من السهل الحصول على دعم إيلينيتا. لقد كانت في بداية مراهقتها ما تزال متعلقة بذكرى أمي، وكان تبجيلها لها يزداد يوماً بعد يوم. في تلك الليلة تحدثتُ إليها طويلاً، محاولاً أن تدرك أن أبي كان «لا يزال رجلاً شاباً». فسألتني مغتاظة: «ما يزال شاباً؟ وعمره ثلاث وأربعون سنة؟» أضفتُ أننا بحاجة إلى أن تنضم إلى أسرتنا امرأة مثل سونيا. فقالت: «لدينا جوليسكا» وهي تدرك تماماً أن حجتها غير مقنعة. لكنها وعدتني، على الأقل، بأنها ستبذل مجهوداً لكي تعامل سونيا معاملة حسنة. «لا تنسي أن هذا التغير في حياتنا شيء مهم جداً بالنسبة لأبي». فاستسلمت قائلة: «حسناً. ولكنني لن أناديها ماما».

أحدثت الوضعية الجديدة تغييرات في توزيع مساحات المنزل. وبما أن ناطاليا وكيكي كانا قد نجحا بدأا يعملان، فقد استأجرا لهما شقة وبذلك، غادرت ناطاليا البيت. واحتفت جوليسكا بذلك كما لو أن الأمر يتعلق بانسحاب القوات التركية، عندما نزع منها القيصر نيكولاس الأول جزءاً كبيراً من منطقة نوفي بازار (الدروس الرَّنانة التي كنت أتلقاها من جوليسكا أثناء إعدادها الطعام، جعلتني أعرف عن مونتينيغرو معلومات أكثر من تلك التي أعرفها عن بايساندو).

في آخر يوم قضته ناطاليا في بيتنا، ذهبتُ إلى دكان زهور واشتريت لها باقة من الورود الحمراء، تخليداً للأمجاد الماضية. وتأثرت هي لصنيعي، وتخليداً أيضاً لتلك الأمجاد، قبلتني على شفتيّ.

اقتنى أبي أثاثاً جديداً لغرفة نومه واستقر مع سونيا في الحجرة المقابلة، بينما انتقلت أنا إلى الغرفة التي كان ينام فيها أبي وانتقلت إيلينيتا إلى غرفتي. وحدها جوليسكا بقيت صامدة في مكانها بمعقل آخر الممر. كانت قد قبلت بوجود ربة بيت جديدة بصبر مونتينيغري. في الواقع، أنا لا أدري إذا ما كان المونتينيغريون يتحلَّون بالصبر أم لا، ولكن جوليسكا (التي علمتني أن مونتينيغرو باللغة الصربية تسمى «كرنا غورا») كانت قد نشأت في سهول «زيتا»، وكانت قد أرتني ذات مرة صورة بلون بني داكن، تظهر فيها الطفلة جوليسكا باسمة على ضفاف بحيرة سكادار. أحياناً، كانت تعلن موافقتها على زواج أبي عن طريق تعليقات تلميحية، من نوع: «السيد بابا فعل حسناً زواجة جديدة. الرَّجلة يحتاج مرءاً».

في حفل الزواج (وكان حفلاً مدنياً وخاصاً جداً، لكنه شمل دعوة إلى محلِّ حلويات بشارع كوردون)، لم يحضر سوى العم إيدموندو والجدَّين اللذين كانا يسكنان في بوينوس أيريس، اثنين أو ثلاثة من أصدقاء أبي (كان من بينهم مشجِّع اللاعب بييندييني)، ووالدَيْ سونيا اللذين جاءا من طاكواريمبو وجاري السابق نوربيرتو

(كانت لائحة المدعوِّين التي أعدَّها أبي تشمل أيضاً دانييل وفرناندو، ولكنني لم أشأ دعوتهما، لأنهما كانا متخاصِمَين، ولم أكن أرغب في أن أضعهما في موقف محرج)، ثم ناطاليا وكيكي. حضرت كذلك جوليسكا بهيئة فولكلورية، مرتدية زياً تقليدياً لبلدها وكانت نجمة الليلة بإسبانيتها الأساسية. أما الجد خابير، فقد ذهب أبي بنفسه ليبلِّغه الخبر ويدعوه إلى الحفلة، ولكنه اعتذر قائلاً («لا أستطيع أن أترك دولوريس وحدها، فمنذ أن أغلق دكان الفحم أراها جد كئيبة»). ومع ذلك، عندما علمت جدتي بالخبر، أبدت تحمساً كبيراً، ولكن بعد يومين قالت لي: «لا أريد أن يعرف خابيير ما سأقوله لك: أبوك كان دائماً فاجراً ومن الواضح أنه لا يهمُّه إن كان بذلك يلوِّث ذكرى ابنتنا. أنصحك ألا تتكلم أبداً مع تلك المومس (اسمها سونيا، أليس كذلك؟) هذا أقل ما يمكن أن تفعله تكريماً لأمك القدِّيسة». أما الجد خابيير فكان، على عكس الجدة، يبارك بحماس قرار أبي (في غياب الجدة، طبعاً). قال لي نفس الكلام الذي أسمعتني إياه جوليسكا، ولكن بإسبانية سليمة من الأخطاء: «الرجل بحاجة إلى المرأة». ودفعت المعارضة العنيدة لذلك الزواج بالجدة إلى تصنُّع أزمة صحية خطيرة، آملة بذلك أن يتم تأجيل ذلك الزواج الممقوت. ولكن الجد، الذي كان يحفظها عن ظهر قلب، لم يقل لنا شيئاً ولم يستدع حتى الطبيب، وإنما أعطاها قرص أسبيرين

وجدَّتي، بعد أن أذعنت في النهاية إلى ما لا مفرَّ منه، تحسَّنت في ظرف أربع وعشرين ساعة.

دخول سونيا إلى بيت شارع أريوستو غيَّر تغييراً جوهرياً إيقاع وأسلوب حياتنا. كانت طبَّاخة ماهرة، فعلَّمت جوليسكا أطباقاً جديدة لذيذة (إسبانية، فرنسية، إيطالية)، وكحيلةٍ ذكية لكسب دعمها اللامشروط، تعلَّمت بكل دقة الأطباق التي كانت تُعدُّها اليوغوسلافية. وبذلك، بدأنا نتمتع بطبخ دوليٍّ حقيقي. وكنتيجة مباشرة لذلك التحسُّن، زاد وزني خمسة كيلوغرام بالتمام في ظرف ثلاثة أشهر فقط، ولقد استفدتُ من هذه الكيلوغرامات لأني كنت في ذلك الحين نحيفاً للغاية.

في بعض الأيام، كنت آخذ معي عمل الوكالة إلى البيت، بدلاً من أن أنجزه في مقر العمل، وكانت سونيا أحياناً ترجع قبل الوقت المعتاد فنتجاذب أطراف الحديث. وكانت أسئلتها دائماً تتكرر بنفس الطريقة: «احكِ لي كيف كانت والدتك. حتى أفهم وأساعد سيرخيو، أنا بحاجة إلى أن أعرف كيف كانت أمك». حينئذ كنت أحكي لها بعض الطرائف، أصف لها ملامح وعادات أمي، وكانت هي تمتص كل شيء، كأنها إسفنجة. كان بإمكاني أن أغيِّر معلومات أو انطباعات، أو أن أخترع أحداثاً، ولكن، وإن سوَّلت لي نفسي ذلك، إلا أنني فكرتُ أن فِعله إنما هو ضرب من النذالة، فتقيدتُ

بنقل الأحداث والصفات الحقيقية. الغريب في الأمر هو أن سونيا، بأسئلتها، فرضت عليَّ، عن غير قصد، أن أعيد بناء صورة أمي من جديد، وأظنني بذلك فهمتها بشكل أفضل وأحببتها أكثر.

الثالثة وعشر دقائق

كنت أواصل رسم لوحاتي زيادة على الساعات التي كنت أرسمها عادة، وكنت قد بدأت برسم صور قلمية، ولكنها لم تكن واقعية البتة، صور لناطاليا (قبل أن تغادر البيت)، جوليسكا، إيلينيتا، سونيا. لم أكن أجد الجرأة بعد لرسم لوحة لأمي (ولم أكن أريد الاعتماد على الصور الفوتوغرافية) ولا لريتا، وإن كنت، في هذه الحالة الأخيرة، لا أعرف السبب بالضبط. كنت أحب صورة جوليسكا على وجه الخصوص، رغم أن صاحبة الصورة الأصلية كانت قد أصدرت حكمها: «أنا ليس هذا. أنا جميل أكثر».

تمكّنتُ أخيراً من إقناع قاعة عرض في وسط المدينة بقبول تنظيم معرض للوحاتي الزيتية والمرسومة بأسلوب المراقم، في إطار سلسلة سُمِّيت «شبان تشيكيليون من الأوروغواي». المعرض حمل اسم «ساعات ونساء» واللوحة الأساسية كانت عبارة عن نسخة جديدة، زيتية هذه المرة، للوحة «ساعة الحب. تكريماً لريتا». اللوحة الأصلية، التي كانت معلقة بغرفتي القديمة، كانت قد تعرضت لحادثة، عندما ارتخى المسمار الذي يحملها فسقطت وارتطمت بقوة على الأرضية. لم أكن قد وضعت مثبّتاً في اللوحة، لأني أردت

يظل محافظاً على ألوانه، ولذلك لم يبق من صورة الساعة سوى قليل من الغبار المتعدد الألوان مكوّماً في الأسفل بين الزجاج والإطار. لم ينجُ من الكارثة سوى عقرب الساعات ورقم تسعة الروماني. في النسخة الزيتية أدخلت بعض التغييرات. فالرجل الصغير عقرب الدقائق يُبرِز رجولة واضحة بينما المرأة عقرب الساعات تعرض مفاتنها، وبهذه الإضافات ازدادت إيروتيكية الساعة، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. ورغم كل شيء، ألصقتُ باللوحة بطاقة صغيرة كتبت عليها «مباعة». لم أكن أريد أن أسلِّم ذلك التوسل اليائس، بشكل أو بآخر، إلى مُشترٍ مجهول.

كانت هناك آراء نقدية إيجابية، أكَّدت على «حداثة وأصالة الرسام»، ولكن شخصاً من أولئك الشُّكوكيين، كتب أن «إيروتيكية الساعات» تلك، في هذه المرحلة من حياته ومن تاريخ الفن، تثير فيه الإشفاق أكثر من الإعجاب. ولعل ذلك النقد اللاذع اللطيف، لم يقرأه الجميع، لأنني بعد أسبوعين من المعرض كنت قد بعتُ امرأتين وأربع ساعات، هذا عدا أن كل امرأة كانت تحمل ساعتها الصغيرة. والواقع هو أن عقارب ساعاتي، سواء منها الكبيرة أو الصغيرة، كانت تشير إلى أوقات مختلفة، إلا أن اهتمام الجمهور انصبَّ بشكل خاص على تلك التي كانت تشير إلى الثالثة وعشر دقائق.

أخدود الرغبة

كنت في الحادية والعشرين من عمري عندما بدأتُ علاقة ثابتة مع فتاة رائعة. لا أدري إذا ما كنا خطيبين أو «شيئاً من هذا القبيل»، كما تسمي جوليسكا العلاقات التي تعتبرها غير شرعية. كنا لا نكاد نلتقي في البيت، لأن ماريانا كانت تدرس الطب البيطري وتقيم في شقة بِـ «أغوادا» مع زميلة دراسة اسمها أوفيليا، وكانت هذه تذهب في كل نهاية أسبوع إلى مالدونادو، حيث توجد أسرتها، فتبقى الشقة تحت تصرُّفِيا.

تعرَّفت على ماريانا في حفلة راقصة بِنادي بانكو كوميرسيال. رقصنا طيلة الليلة. أول توافقٍ سنكتشفه بيننا كان هو رقصة التانغو، وهو أمر نادر بين الشبان، وبما أن بين كل رقصة تانغو وأخرى كانت تمرُّ ربع ساعة، كنا نجلس ونتناول بضعة كؤوس ونروي قصة كلٍّ منا، والقصَّتان معاً (يجب أن أعترف) لم تكونا جدَّ مثيرتين. في الحقيقة، لا أدري بأية أجزاء من قصَّتها احتفظت هي، أما أنا فقد احتفظت بحادثة الداندي وتجربتي الأولى مع ناطاليا ولقاءاتي بريتا.

كانت هناك منطقة أخرى للاستكشاف المتبادل وكانت أكثر أهمية. في الواقع، من المستحيل أن يلتقي جسمان في أكثر من رقصة تانغو، دون أن يشرع كل منهما في معرفة الآخر. وفي هذه المعرفة وفي حدوث ذلك الاتصال، يكمُن الاختلاف بين التانغو وبين رقصات أخرى يكون فيها الراقصون والراقصات بعيدين عن بعضهم البعض أو تسمح بتماسٍّ بسيط لا يترك أثراً يُذكر. عناق التانغو هو قبل كل شيء تواصل، وإذا كان لا بُدَّ من إيجاد نعت للكلمة، فهو تمهيد لالتحام بين جسدين قد يحدث بعد ذلك أو لا يحدث، ولكنه في تلك اللحظة موجود كمشروع قابل للإنجاز بالنسبة للرّاقصَين، وكلما انسجم الراقصان أكثر، كلما تأقلم الجسدان مع بعضهما أكثر، وكلما تجاوبت عظام الراقص مع لحم الراقصة الغض أكثر، كلما كانت ميزة الالتحام أكثر وضوحاً.

وهكذا أتاحت رقصات التانغو المتتالية في تلك الليلة، التي لم تكن سحرية، بل عادية للغاية، لجسدي ولجسد ماريانا أن يعرفا بعضهما بعضاً، ويرغبا ويتمِّما ويحتاجا إلى بعضهما بعضاً. وعندما التقينا بعد ذلك بثلاثة أيام، وتجردنا من كل ما كنا نرتديه ورأى كل واحد منا الآخر كما هو، لم يأتِ ذلك العري الحقيقي بجديد يذكر. فقد حفظنا بعضنا عن ظهر قلب، منذ التانغو الخامس. كانت هناك بضعة تفاصيل جديدة (خال، قليل من

النمش، لون الزغب الجوهري) ولكنها لم تكن أساسية ولم تغير الصورة الأولى، الأصلية، التي أرسلها الاستعداد الحسّي لكل جسد إلى أرشيف الخيال. ذاكرة الجسد لا تتوقف أبداً عند التوافه. كل جسد يتذكر من الآخر ما يجلب له المتعة، لا ما يحدُّ منها. إنها ذاكرة حميمية، وأكثر من ذلك: هي أكثر سخاء من حاسة اللمس التي باتت مستهلكة، وتشبّعت بعدوى الروتين اليومي. الصدر الذي يلمس النهدين، الخصر الذي يحسُّ بالخصر، كل ذلك النسيج من الملامسات الشَّهية، حتى وإن كانت تتحقق من خلال أثواب الحرير أو الكشمير أو القطن أو الخيط أو من خلال أثواب أكثر خشونة، يتعلم بسرعة وبصفة نهائية جغرافية الأرضية الأخرى، التي قد يتحقق له حبها أو لا يتحقق، ولكن في تلك اللحظة، هي مرغوبة بحرارة. بالنهاية، بذرة الحب تجد إمكانيات أفضل للنمو إذا ما وُضعت في أخدود الرغبة. أين قرأتُ أنا هذا؟ ربما كانت الفكرة لي. أسجّلها في مذكرة لأستغلها في موضوع لوحة (بلا ساعات): أخدود الرغبة. لعله عنوان جِدُّ أدبي. ولكن لا. اللوحة يجب أن تعرض رجلاً وامرأة يؤديان رقصة التانغو. فقط. أخدود الرغبة. فقط هذا. وللجمهور أن يحرّك خياله.

هأنذا قلتُ ما كنت أريد قوله: أوّل تحالف بيني وبين ماريانا كان تحالف جسدين. جسدها كان، بلا شك، إحدى عجائب

دنياي السبع. جسدي كان، على الأقل، باقة من الأحاسيس الجديدة. جاب كل منا جسد الآخر، مستمتعاً، مؤكداً مع كل شبرٍ تلك البيانات الصحيحة التي زوَّدَنا بها التانغو. دام افتتاننا بذلك الالتحام عدة لقاءات. لم يكن هناك أي سؤال يطرحه أحد الجسدين دون أن يعرف أو يستطيع الجسد الآخر الإجابة عنه. كم كان كلامنا قليلاً! أظن أننا كنا خائفَين، من أن تجلب لنا الكلمة، عند اكتساحها لفضائنا، نزاعات، كسوراً، شكوكاً. فما أشهى الصمت، وما ألذ اللمس!

وهكذا إلى أن اقتحمت الكلمات وجودنا، كلمات أخرى، كلمات نائية. ذات ليلة، عدتُ إلى البيت فوجدتُ جوليسكا تنتظرني وفي يدها ظرف بلون بني فاتح: «وصل بعِطْرَة كثيرة»، قالت اليوغوسلافية بكامل ابتسامة فمها البدوي. كانت على الظرف طوابع برازيلية ولم يكن عليه اسم المرسل. انتظرتُ إلى أن دخلتُ غرفتي، ثم فتحته. كان به بطاقة لمدينة باهيبا: «أهنِّئك على المعرض. أعجبني إضافتك لعقاربي التي تشير إلى الثالثة وعشر دقائق. لن أتَّهِمك بالسرقة الأدبية. هل فكرتَ في شكل آخر لنفس الساعة؟ أن تكون هي عقرب الدقائق ويكون هو عقرب الساعات؟ سيكون ابتكاراً جيداً. إنني أهديك الفكرة. أو أعطيك إياها مقابل صورة قلمية لي، هذا أفضل. ولكن يجب أن

ترسمني بساعتِي– الإسورة، وهي تشير إلى الثالثة وعشر دقائق. آه، شكراً على التكريم. قبلات وقبلات من شفتيَّ الضعيفتين إلى شفتيك القويَّتين، كلها مِمَّن هي لك، ريتا».

امرأة من «المأمام»

رقبة ماريانا التي لا تتحرك، على بعد سنتيمترات من عينيَّ المصابتين بالأرق، تحيط بها هالة من السكون، ما تزال مجهولة بالنسبة لتجربتي القليلة مع النساء النائمات. وهذا ما كتبه ليشينبرغ (آخر ما قرأتُ): «تاريخنا بأكمله ليس إلا تاريخ الإنسان المستيقظ. أما تاريخ الإنسان النائم فلم يفكر به أحد بعد». أنا سأفكِّر بتاريخ المرأة النائمة. كنا قد فعلنا وفكّكنا الحبَّ بشراهة جديدة، بِطاقةٍ محوِّلةٍ، لم تكن جسدية فحسب. كنا قد مارسناه ببعدٍ وإحساس مختلفٍ عن البُعد الذي يستدعيه تآمر وسحر التانغو. كان الأمر وكأننا أدركنا منطقة أخرى للمتعة، منطقة ربما أقلّ إثارة ولكنها أطول دواماً. أحسستُ فجأة وبكيفية ساذجة أنني رجل. لا كنقيض للمرأة بل، كمرادف للكائن البشري.

مددت ذراعي نحو ذراعها وجُلْتُه من الأعلى إلى الأسفل، حتى لا أنساه. صدرت عنها حركة تكاد لا تُرى وغمغمت اسمي. في الحقيقة، هي لم تقل «كلاوديو» بجميع الحروف الساكنة، بل نطقت الحروف الصوتية فقط، كأن هذه الأخيرة بقيت عالقة في شَرك

الحلم. وهذا طمأنني إلى حد ما، لأنه من الوارد دائماً أن تنطق المرأة النائمة اسم رجل آخر، حتى وإن كان ذلك الاسم ينتمي إلى الماضي. ومن البديهي أنه إذا كان يحضر في أحلامها، فذلك يعني أن بإمكانه أن يعود إليها في اليقظة.

ولحسن حظي، وبما أن ماريانا نطقت اسمي، فإن يدي وجدت أنها مُخوَّلة للاستمرار في التنقل. وهناك ظلت كما لو أنها في بيت يستقبل أخيراً ابنه الضال العائد. قبّلت ماريانا الهواء الدافئ بِشفتيها. ضمَّتني إلى صدرها وهي ماتزال نائمة، وظلت ملتصقة بي، وعندما قرَّرَت أخيراً أن تستيقظ، اكتشفَتِ الخبر: كنت حينئذ فيها، كنت داخلها.

في الواقع، هذه المرحلة الجديدة بدأت بعد أسبوع من توصُّلي ببطاقة ريتا لمدينة باهيًا. أحسست خلال عدة أيام أنني مضطرب. لم أرغب في لقاء ماريانا وحتى لم أكلِّمها في التلفون. كان علي أوَّلاً أن أرى الأمور بوضوح مع ذاتي. إذن، لقد جاءت ريتا إلى مونتيفيديو وحضرت المعرض، ولكنها لم تَسْعَ إلى لقائي؟ هي تعرف عنواني، رقم تلفوني، المقهى الذي أجلس فيه عادة، عملي، ولكنها لم تفعل شيئاً من أجل أن تراني. ذكراها لا تزال تثيرني، ولكن هل علي أن أستعبد نفسي، وأنا أعلم أن ريتا، الآن هي كما كانت من قبل، وكما ستكون مستقبلاً بلا شك، ما هي إلا وجود شارد، أو ربما هدف لا

يدرك؟ لم أكن أريد إلغاء ذاتي أو أن أستسلم للإحباط. كنت أريد أن أحقِّق ذاتي، سواء على مستوى الحياة العاطفية بوجه خاص، أو على مستوى الحياة بوجه عام.

طفولتي ومراهقتي ما تزالان مومضتين، ولكني الآن إنسان راشد، إنسان، بما أنه لا يعتقد بعالم الماوراء، عليه أن يندمج في عالم المأأمام، أن يستمتع ويعاني فيه، ويدفع ثمن مصيره نقداً، لا كما تُدفَع أقساط التأمين على الحياة. كان الحاضر يحتلّني أكثر فأكثر. فالماضي سلسلة حواضر مختومة، والمستقبل سلسلة حواضر لم تُرسَل بعد. والتاريخ بأسره ما هو إلا حاضر يطول ويطول إلى ما لا نهاية. وكذلك تاريخي أنا أيضاً. وما عدا ذلك فهو، بلا شك، غموض أو فراغ. أين هي أمي؟ أين هو الداندي؟ أين جدّتي دولوريس التي ماتت قبل شهرين فقط، وهي تسأل ما تزال، مهووسة، إذا ما كان اللاسلطويون قد عادوا من باريس خفية إلى دكان الفحم، ليصنعوا فرنكات فرنسية أخرى، لأن تلك التي طبعوها في المرة الأولى، قد صرفوها كاملة في الفولي بيرجير؟ لا شك أنهم تلاشوا جميعهم وأنهم قد استقروا في اللاشيء، إلى الأبد. اللاشيء، ذاك هو الموت، وليس ذلك الحلم المتكرِّر بشكل لولبي والذي اقترحته ريتا. المأأمام، في المقابل، هو ماريانا، وبين ريتّةٍ تتأرجح بين الهروب والظهور وماريانةٍ تبقى معي وتسعدني، اخترت طبعاً ماريانا، رغم

أنني أعرف أن ريتا ستظل تتربَّص بي وتراقبني عند كل منعرج من منعرجات أيامي وليالي الآتية.

وتغيرت علاقتي بماريانا انطلاقاً من ذلك الاختيار. وبالمصادفة، كان غيابي الذي دام عدة أيام جعلها تفكر بتركيز في ذاتها، وتتأملها وتتأملني. وقرَّرت أن تراهن على علاقتنا. لقد كان هناك خطيبان سابقان في حياتها انتهت علاقتها بهما. وقد حكت لي ذلك دون بكاء، وبعينيها السوداوين المحدِّقتين. لذلك، عندما عدتُ إليها وحكيتُ لها بدوري كم كان لريتا أثر في تردُّدي (لم أكن قد ذكرتها لها من قبل) وقلتُ أنني سأبقى معها بصفة نهائية، كان اختيارنا، اختيارها لي واختياري لها، كلٌّ على حِدة وبِحرِّيَّة تامة، ميثاقاً تلقائياً، بلا وثائق ولا شهود، وعندما تعانقنا أخيراً ولأول مرة، ما أمام وما وراء التانغو الذي جمعَنا، عرفنا أن علاقتنا ستكون دائمة، أعني أنها ستدوم أقصى ما يدومه ما هو زائل.

لمَ الكلام؟
(مقتطف مَن مسوّدات أبي)

لمَ أنا قليل الكلام؟ كلما زاد كلام المحيطين بي، كلما قلَّت رغبتي في الحديث. ربما كان هذا هو المغزى من هذه المسودَّات التي أعود إليها بعد ست سنوات: أريد أن أقول شيئاً. لا أدري مع من أستطيع أن أتحدث عن أورورا. أحياناً أعتقد أن كلاوديو قد يفهمني، ولكن الفتى مشغول بأشياء أخرى. سونيا جيِّدة. إنها تبذل كل ما بوسعها لكي تكون معي وأنا لا أريد أن أجرحها. صحيح أنني لا أتحدث إليها كثيراً. لكن جسدي، نعم، يتحدث إلى جسدها وهذا ربما كافٍ. هل يكفي حقّاً؟ أعترفُ أنها تُبقيني على قيد الحياة، تخلِّصني من الضَّجر. على كل حال، ما جدوى الكلام إذا كنا نائمْين؟ مع أورورا كانت الحفلة مختلفة. قبل كل شيء، كانت «حفلة». لم يكن ذلك بالنسبة لها متعة فقط، بل تسلية أيضاً. لا بأس من أن نضحك في غمرة النشوة. إنني أشتاق للحفلة. هنا يكمن السر. أورورا لم تكن قليلة الكلام، وأنا لم أكن كذلك في زمن أورورا. لقد كانت تثيرني بأسئلتها. تجعلني أفكِّر. سونيا، في المقابل، عندما تتكلم،

تبادر بتقديم الأجوبة. أجوبة على أسئلة لم أطرحها أنا. أورورا لم تكن واثقة من نفسها. سونيا شديدة الثقة بالنفس. وأنا واثق من عدم ثقتي بنفسي. يا للمُعضلة! اليوم كنت أقوم بجردٍ لعلاقاتي. في الواقع، لقد عرفتُ نساء قليلات. هل كان ذلك وفاء؟ كسلاً؟ لا أدري. لم أستطع أن أعدَّ سوى ثماني نساء. باعتباري على مشارف الخمسين من عمري، ليس هذا رقماً قياسياً يمكن أن يدخل كتاب غينيس. بين النساء الأخريات، خمس لم يكنَّ سوى محطَّات قصيرة. لم يتركن أي أثر في نفسي. من تركت شيئاً ما كانت هي تلك الـ «روساريو». ربما فشلتُ في إبقائها بجانبي. لا أتذكر الآخريات أما روساريو فأتذكر عينيها. وأكثر من عينيها، أتذكر نظرتها. كانت تنظر كما لو أنها تريد أن تقول شيئاً ولكنها لا تقول. لم أرها تبكي يوماً. أحياناً كنت أقول لها أشياء قاسية، أشياء تكاد تكون مهينة، لأرى هل ستبكي. ولكنها كانت تنظر إلي فقط، نظرات عميقة ولكن بلا دموع. هل كنت سعيداً في يوم من الأيام؟ قبل أورورا ضاعت مني روساريو. أورورا المسكينة انطفأت من تلقاء نفسها. والآن توجد سونيا، التي تجيد مرافقتي. السؤال هو هل نحن قرينان؟ أظن الرّد سيكون بالإيجاب. ولكن، لو كان الأمر كذلك، لم يكن ليساورني الشك، على ما أعتقد. لماذا غيرتُ مسكني مراراً؟ عدد البيوت التي مررت بها في حياتي يفوق عدد النساء. هذه المسوَّدات أكتبها

وأحتفظ بها هنا. في الفندق. ليست موجّهة لأحد، ولا حتى لي أنا. إنها ليست ضرورية بالنسبة لي. يمكن أن أعيش دون أن أكتبها. في الواقع، إنها ليست كتابة. إنها مجرد قول شيء على الورق.

الفندق. هو أفضل عمل قمت به إلى الآن. رؤية شجر الصنوبر من مكتبي وحده امتياز كافٍ لكي أراه يستحق ذلك. ثم إن علاقتي بالناس طيبة: بالموظفين، بالسياح. على العموم، علاقاتي بغير الأقرباء خير من علاقاتي بأقاربي. ومع ذلك فإن أقرب إنسان إليّ ما يزال هو كلاوديو. لا أدري إذا ما كان سينجح كرسّام. الحقيقة أنني لا أحب عمله كثيراً. أراه قد أسرف بعض الشيء في موضوع الساعات الإيروتيكية. عموماً، أفضِّل أن يكون إنساناً طيباً (وهو كذلك) على أن يكون رساماً ناجحاً.

الصنوبرة الكبرى تحرك أغصانها. يالأناقتها! هي أيضاً تجيد رفقتي، كما تفعل سونيا. يصيح ديك بعيد، يصيح آخر، أقرب. كثيراً ما أشعر بالرغبة في الرد على هذه الديوك. ولكني لا أُجيد سوى القوقأة البشرية لا تانغوات الدِّيَكة.

وكما كنت أفعل عندما كانت الجدة دولوريس ما تزال على قيد الحياة، واصلتُ تكريس صباحات الأحد للجد خابيير (ما عدا الأيام التي كنت أذهب فيها إلى السوق الأسبوعي). ولكنني ذهبت هذه المرة برفقة ماريانا. كان لدي إحساس بأنهما سينسجمان. وهذا ما حدث. لمعت عينا الجد خابير المنكسرتان والشِّبهِ مغمضتين غالباً. لمس وجنتها بيد واحدة، كما لو أنه يريد أن يؤكد باللمس ما لم تكن تميِّزانه عيناه الكليلتان. وقال مبتهجاً: «ما أجملها! وما أروع أن نكون شباباً ونحب بعضنا بعضاً. لقد نسيت كيف يكون الإنسان شاباً، ولكنني لم أنس كيف أحببت، كيف كنت محبوباً». فسألتُ بتهوُّر: «تعني دولوريس؟» «دولوريس، إيوخينيا، باستورا، إيسابيل، إلخ». فقالت ماريانا: «عجباً يا جدي، نساء حقيقيات!» «لا تندهشي أيتها الصبية الحلوة، ولا تستغربي إذا ما أحب حفيدي هذا نساء أخريات. جميل أن يكون لنا قلب كبير يتَّسع لأكثر من حب». «وأنا يا جدي؟ هل ستسمح لي بأن أوسِّع قلبي أيضاً؟» «آه، لا يا صغيرتي، هنا لا أسمح بتنازلات. فأنا ذكوريٌّ بشكل صارم».

وللحظة، ظل مطرقاً يفكِّر: «آه، نسيت، أحببت واحدة اسمها ريتا أيضاً» فسألته «وماذا جرى؟»، مندهشاً. «أكاد أكون غيوراً. جرى أنها تبخرت هكذا ببساطة. لقد كانت جميلة وفاتنة. الحقيقة هي أنها لم تستسلم لي. فقط اختفت. ولا أظن أني عاملتها معاملة سيئة. فأنا، عموماً، لم تشتكِ أية امرأة مني. ما كان يحدث هو أنه ذات يوم، أو بالأحرى، ذات ليلة، كان ينتهي السحر، ولكن مع ذلك، كانت تبقى الصداقة. حتى أن إحداهن، كان اسمها باستورا أصبحت صديقة لدولوريس». فقالت ماريانا دون أن تنظر إليّ: «يبدو أن كل اللواتي يحملن اسم ريتا يمِلن للهرب».

و كما توقَّعتُ، لم يضيِّع جدي فرصة حكاية كل تفاصيل قصة الفرار المشهورة ونظرية الجدة دولوريس. في روايته الجديدة، منقحة ومضخَّمة، حكى أن الهاربين، قبل ركوبهم السيارة، غنوا النشيد؟ فسألته «ولكن كيف؟ ألم يكونوا لاسلطويين؟» «صحيح. إذن ربما غنوا النشيد الوطني أو غنوا بوليرو. ولكنهم غنوا شيئاً، أكيد». كانت ماريانا جد مستمتعة، وبما أن الجدَّ لم يكن غبياً البتة (لحسن الحظ) فقد سخر هو أيضاً من كذبته.

لم يكن يوجد أحد في الفناء الخلفي للكنيسة، فقال لنا جدي خابيير: «لم يَعُد القساوسة يلعبون كرة القدم، وكما كنا نتوقع، فقد انخفض عدد أبناء الأبرشيّة الشبان بشكل ملحوظ. نظريتي هي أن

القساوسة كانوا قد بدأوا يهرمون، وعند نهاية المباريات كان ينتهي بهم المطاف مصابين بالربو والعرج والخفقان السريع».

ثم سألني عن أبي: « قل لسيرخيو أن يزورني وأن يصحب معه سونيا لأتعرَّف عليها. الآن لم تعد هنا دولوريس التي كانت تكرهها بلا أي سبب، لذلك فالساحة الآن خالية. لقد كانت دولوريس دائماً تبحث عن موضوع (ولسوء الحظ، كانت تجده) تحوِّله إلى هاجس: دكان الفحم، سونيا، ومواضيع أخرى. ولا تعتقدوا أن هذا لم يكن يحدث سوى في السنوات الأخيرة. فقبل ذلك، كان هاجسها هو الرئيس «باتلي»: وعندما كانت ترى في الجرائد صورة للسيِّد بيبي، كانت تمزِّقها إلى قِطع صغيرة. تصوَّروا، صورة رجل سياسي بهذا الحجم! كانت تقول أنها تنتمي إلى الحزب الأبيض، ولكن إيرِّيرا لم يكن يعجبها أيضاً. كان ولاؤها فقط لِسارابيا، إلهُها ونبيُّها. آه، ولكن لا أنكر أننا في شبابنا قضينا أوقاتاً ممتعة. ومن لا يستمتع في شبابه؟ الإنسان عندئذ لا ينتبه (لا ينتبه إلا بعد ذلك بسنوات عديدة، عندما تبدأ العِلل ويصيبه الهوس) ولكن سنوات الشباب شيء رائع. أنتما، لا تنتظرا الشيخوخة لتنتبها إلى ذلك، هه؟ ما هو رائع هو ما تملكان، الآن لا ما ستتذكَّرانه فيما بعد، بين ضباب الذاكرة الباكية. لقد تكلمت قبل دقائق، كما سمعتما، عن عدة نساء في حياتي ولكنني لا أتذكر سوى الأسماء، الوجوه لا أتذكرها».

وأضاف ببعض الخبث: «ما زلت أحتفظ بجزئيات. وهنا سألت ماريانا: «وماذا عن ريتا؟» «عن ريتا؟ فقط أتذكر ذلك الأثر الذي تركته بعد فرارها».

في الحقيقة، كلاوديو لم يكن يسمّى فقط كذلك، بل كان اسمه كلاوديو ألبيرتو ديونيسيو فيرمين نيبوموسينو أومبيرتو (دون حرف H الصامت). وعادةُ «قطار الأسماء» هذه، على الأغلب، تجد جذورها في تقليد راسخ في وسط إيطاليا، ربما بأومبريا أو توسكانا، فاسم أبيه هو سيرخيو بيرخيليو ماوريسيو رومولو فيطوريو أومبيرتو، وجدُّه، صاحب دكان بوينوس أيريس، كان اسمه بينسينسو كارلو ماريو أومبيرتو ليونيل جيوفاني. وهكذا، ولكن ليس بشكل تتابعي بل ارتجاعي. وكما هو ملحوظ، الاسم الوحيد الذي يتكرر هو أومبيرتو، هو الهوية الثابتة، شيء بمثابة ماركة المعمل.

تلك السلسلة من الأسماء صارت كابوساً بالنسبة لكلاوديو، وقد سببت له مضايقات في أكثر من مناسبة، خاصة عندما كان يضطر إلى طلب أو تسلم وثيقة ما. وهو يتذكر بخجل خاص أحد تلك الإجراءات المُهينة للحصول على وثيقة. قبل شهور من بلوغه الثامنة عشرة من عمره، توجه إلى أحد المكاتب المكلفة بكل ما له علاقة بالانتخابات، لبدء الإجراء المتعلق بهويته المدنية، حتى يتمكن

من التصويت لأول مرة (بإلحاح من أبيه كان قد قرر التصويت على لائحة «باتلي»)، في شهر نوفمبر التالي. كان لكلٍّ ناخب رقم، وكان هو صاحب الرقم 21. عندما جاء دوره أخيراً، ووقف أمام موظف كبير في السن، يلبس وزرة رمادية، ويبدو عليه التعب، وكان عليه أن يملأ، في كل حالة، أكثر من عشرين استمارة بالبيانات المطلوبة، أخرج كلاوديو شهادة الازدياد، التي كُتِب عليها بخطٍّ صغير ومجهود كبير اسمه السداسي. قرأ ذلك الرجل الرمادي المتخصِّص في الروتين، ذلك السطر الذي يحمل اسم كلاوديو ألبيرتو ديونيسيو فيرمين نيبوموسينو أومبيرتو، بعناية، ثم سأله، بلهجة حيادية، إذا ما كان اسم أومبيرتو يُكتب بلا حرف H، وأمام الرَّد بالإيجاب، ودون أن تصدر عنه أية حركة في غير محلِّها، توحي بالعاصفة التي بداخله، قال بصوت مرتفع: «أصحاب الأرقام 22 و23 و24 لا يمكن تلبية طلبهم اليوم، وعليهم أن يعودوا يوم الإثنين القادم». كان هناك بعض التذمُّر وحتى بادرة احتجاج، والتي ما إن فترت حتى شرع الموظَّف ذو الوزرة الرمادية في ملء أولى الاستمارات الثلاث والعشرين.

ذات ليلة، ظل فيها كلاوديو وماريانا على السرير (سريرها هي) بعد ممارسة الحب، وأخذا كعادتهما يحكيان أشياء حدثت لهما (دائماً كانا يجدان حدثاً لم يحكياه بعد) وكأكبر دليل على ثقته

بها، ذكر لها هو موكب اسمه الكامل. ماريانا، التي كانت تضحك بسهولة، أبدت لأول وهلة تقطيبات ذهول، ثم بعد ذلك أطلقت قهقهات تردَّدت كمدفع رشاش. ولكن كلاوديو، مع ذلك، لم يشعر بأية إهانة أمام ذلك الردِّ الفريد الذي أثارته فيها هويته المديدة، بل إنه انشغل بمتعة أخرى غير منتظرة: وهي مشاهدة جسد فتاته الجميل، معجباً به، وهو ينتفض يتلوَّى بفعل القهقهات المتسلسلة. وأكثر اسم أثار ضحكها هو نيبوموسينو، ومنذ ذلك اليوم، كلما نشب بينهما نزاع، بسبب أمر هام أو تافه، كانت هي تقول فجأة: «نيبوموسينو»، فيعيد ذلك الاسم الجوهري إليهما سعادة وجودهما معاً. «وأنت ما اسمك؟ ماريانا وماذا أيضاً؟» فأجابت: «ماريانا وكفى». وهكذا كلما كانت هي تقول له نيبوموسينو، يرد عليها قائلاً: «ماريانا وكفى».

وواصل كلاوديو رسوماته. ومثلت ماريانا أمامه ليرسمها خلال ساعات، ولكنها في كل حصة، كانت تخلع ساعتها؟. وكان كلاوديو يدرك أن ذلك التصرف ما هو إلا «طقس مضاد – لريتا». وبما أنهما كانا قد اتفقا على أن ماريانا لن ترى اللوحة إلى أن ينتهي هو من آخر لمسة، فإن كلاوديو أحس بإغراء لا يقاوم في إضافة الساعة التي كانت ترفضها الموديل نفسها، ولكنه خاف العواقب واستبعد الفكرة. وعندما سمح لها أخيراً بأن ترى اللوحة، وشعرت

بفخر للنتيجة، قالت: «لحسن الحظ، نيبوموسينو، لم ترسم الساعة. لو كنت فعلت لما كنت لأتحمّل ذلك». ولم يذكر كلاوديو لها شيئاً عن تلك الإغراءات التي استبعدها. فقط قال: «ماريانا وكفى، أعتقد أن هذا الفنان المتواضع يستحق مكافأة».

وبعد ذلك بنصف ساعة، وقد تقاضى المكافأة عيناً، سألها: «هل تسمحين لي بأن أرسمك عارية في المرة القادمة، أم تريدين أن أختار موديلاً أخرى؟» فصاحت هي «كلاوديو!» ناسية هذه المرة «نيبوموسينو» وتغطّت بالغطاء الوردي. (كان كلاوديو يكره ذلك اللون ولكنه كان يدرك أن السرير والأغطية كانا لها، وليست له) كانت حركتها تلك سريعة بحيث بقي قدماها البيضاوان الرقيقان هناك في الأسفل، كأثر وحيد لِعريها، يظهران من خلال الغطاء الوردي. هناك فقط انتبه بدقة تامة لجمالهما، وفي تلك اللحظة بالذات خطر له موضوع لوحته القادمة: قدمان في غبار ورديّ[5].

---

(5) الكاتب هنا يستعمل لعبة كلامية: «Pies en polvo rosa»، انطلاقاً من مثل إسباني ألا وهو «Poner pies en Polvorosa» والذي يعني الهرب السريع الذي يثير الغبار، ليُكسِبه معنى آخر، وهو المترجَم.

أصوات نائية

قال نوربيرتو: «أنا أيضاً تركتُ الدراسة. أعمل الآن بوزارة المالية وحالتي ليست سيئة. قبل شهر فقط، رفعوا أجرتي. تزوجت بماروخا قبل عام، ربما تتذكَّرها، هي كذلك من كابورُّو». لقد كنت بالكاد أتذكرها، فهي كانت تصغرنا بعامين أو ثلاثة أعوام وهذه المدة بين الأطفال، كانت فارقاً كبيراً.

كنت قد التقيت به بعد خروجي من الوكالة، ذات إثنين عند منتصف النهار. لم أكن قد رأيته منذ عامين، فقررنا هناك بالذات أن نتناول الغداء معاً. كنا وسط المدينة القديمة، فتوجهنا إلى مطعم «لابولسا» الذي يقع على بعد بضعة أمتار، أي في بييدراس، بين سابالا وميسيونيس. وأكثر منه مطعماً، كان مقصفاً يُسَيِّره إسبانيون (كانت الأسرة بأكملها تعمل هناك)، وكانوا أشخاصاً طيبين، مرِحين وعمليّين. وكثيراً ما كنت أذهب إلى هناك لأتناول غدائي، بعد خروجي من الوكالة، وكان بعضهم مثل مانولو، الذي كان يعمل نادلاً، وإينما، المكلفة بالصندوق (لم أعرف إلا بعد ذلك بفترة أن هذا الاسم، الذي يكاد يستحيل نطقه، هو ترخيم لاسم

إينماكولادا)، كانوا يعاملونني كأنني فرد من الأسرة. وكنت أحب كثيراً أسلوب استعمالهم للغة الإسبانية. على سبيل المثال، إذا ما أراد زبونان، بعد انتهائهما من الأكل، تناول عقبة وطلب كلٌّ منهما مثلاً «كريم كراميل مزدوج»، كان مانولو ينقل الطلب للمطبخ هكذا: «دوس فلاندوبليس!» (اثنين كريم–كراميل–مزدوج) وكنت أنا أسمع منه «دوس ماندوبليس» (أي صفعتان!). وفي إحدى المرات، كنت قد طلبت حساء، وبمجرد ما أمسكتُ الملعقة، اكتشفتُ أن بها ثقباً كبيراً ينزل منه الحساء إلى الطبق مرة أخرى، فناديت مانولو وأريته الثقب. قرَّب هو الملعقة من عينيه ولما تأكد من وجود الثقب كما قلت له أنا، هتف بذهول حقيقي: «اللعنة! ياله من ثقب!».

حسناً، هناك ذهبنا أنا ونوربيرتو، الذي فاجأَته الطريقة الودِّية التي استقبلني بها مانولو والتحية الطافحة بالسرور التي خصَّتني بها إينْمَا من مكانها أمام الصندوق. لم تكن هناك أطباق كثيرة للاختيار، فطلبنا شرائح من فخذ الخنزير مع شمَّام، وبفتيك مقلي مع سلطة. وأثناء تناولنا لشرائح الخنزير مع البطيخ، حدثني نوربيرتو عن ماروخا وعن نيته الحميدة في إنجاب أطفال (اثنين على الأقل) خلال أجلٍ قريب نسبياً. وأضاف حذِراً «إن شاء الله». «وهكذا نطمئن بعد ذلك. ويكبر الطفلان معاً. أنا لم أكن أحب وضعي كابن وحيد. لم أكن أحب لا امتيازات ولا مساوئ ذلك». ويبدو أن ماروخا كانت

موافقة: فهي أيضاً ابنة وحيدة وعانت من ذلك الوضع. «أنت أكثر حظاً مني. لديك أخت. اسمها إيلينيتا، أليس كذلك؟» بلى. قلت له إنها الآن في الثانوية ولديها خطيب. كانت قد أسرَّت لي بذلك، لأنها لم تجرؤ على أن تخبر أبي، ولا سونيا بالأحرى، فرغم أن علاقتهما كانت قد تحسَّنت بعض الشيء إلا أنها كانت أبعد ما تكون عن علاقة مثالية. ثم إنه باراغوائي، قالت، ولا أدري إذا ما كان أبي سيقبل بأن تكون لي علاقة بأجنبي. وشجعتها قائلاً: الباراغوائي ليس أجنبياً، لا تنسي أن زعيم الاستقلال أرتيغاس اختار منفاه في هذا البلد. ورفعت المعلومة التاريخية معنوياتها، لدرجة أنها أخبرت أبي بعد ذلك بيومين. فسألتها «ماذا قال لك؟» «ماذا قال لي؟ قال هل الأورغوائيون ذميمون لدرجة أنك اضطررتِ إلى اختيار أحد الـ «باراغواس»[6]». وساءها كثيراً أن ينادِيَه كذلك. فأجابته: فقط لِعلمك، بابا، لست أنا من اختاره، بل هو من اختارني. ولم يجد أبي بدّاً من الاعتراف بأن الـ «باراغواس»، برغم كل شيء، يتمتع بذوق سليم.

فضحك نوربيرتو من الحكاية، ولكنه ألحَّ قائلاً: «هل ترى الامتياز الذي يتمتع به من لا يكون الابن الوحيد؟ أختك تضع ثقتها فيك وتبوح لك بأسرارها وتطلب منك أن تساندها. أنا لم يكن لدي

(6) «باراغواس» بلهجة اللونفاردو المهجّنة، تعني «باراغوائي».

من أسانده، أو بالأحرى من يساندني».

وعندما كنا نأكل البفتيك والسلطة، أطلعَني نوربيرتو على هوايته الحالية: كان من هواة اللاسلكي، وكان له عمٌّ يملك أيضاً الهواية نفسها، وبالإضافة إلى ذلك، كان ثريّاً. فقد أهداه جهاز إرسال واستقبال طويل المدى، ولذلك، فهو يقضي ساعات بأكملها، بسمّاعات في أذنيه، يتبادل رسائل مع أشخاص من فنزويلا أو بويرتو ريكو أو سانطا كروس دي تينيريفي. وقد دفع به حماسه إلى أخذ دروس في اللغة الإنجليزية، ورغم أنه ما زال لا يتكلمها بطلاقة، فإن ما تعلّمه يكفيه للاتصال بليفربول أو أوتاوا أو بوستن.

«وكما لا يخفى عليك، إذا كانت الإسبانية التي يتكلمون بها على الموجة القصيرة ليست هي لغة سيرفانتيس، فإن الإنجليزية المستعملة كذلك، ليست هي لغة شكسبير. إذا تمكنت من أن تقول «أهلاً، كيف هي حالة الطقس؟» «يبدو أنها ستمطر، للأسف» بالإنجليزية، فهذا أكثر من كافٍ. ثم إنك تعرف أنني كنت دائماً أميل إلى التّديُّن (ولنترك الأب ريكاردو جانباً)، ولهذا أتوقع أنني، في أي يوم، وبينما أنا أحرِّك قرص الراديو قد أسمع فجأة صوتاً رجولياً عطوفاً يقول لي (بالإسبانية طبعاً، الرّب لا يتكلم بالإنجليزية إلا مع البروتستانت): الرّب ينادي نوربيرتو. حوِّل». وختم كلامه، متصنعاً حسرة جمة، وقال: «المشكلة هي بماذا سأجيبه»، فقد كان

واضحاً أنه يسخر من نفسه ومن تدَينه القديم. وبعد أن طلبنا وتناولنا «دوس فلاندوبليس»، انتزع نوربيرتو مني وعداً بأن أزوره في بيته. «لسببين: الأول أن تتعرَّف على ماروخا (أو تتذكرها)، والثاني أن ترى جهاز الراديو الذي لديّ. أنتظركما أنت وماريانا، طبعاً». وفي الأسبوع التالي ذهبت مع ماريانا. لم أكن أنا لأتعرف على ماروخا، ولكن ماريانا، في المقابل، تعرَّفت عليها لأنهما (وهذه كانت مفاجأة بالنسبة لي ولنوربيرتو) كانتا زميلتين في مدرسة للراهبات لا أتذكر اسمها. فقلنا بصوت واحد: «مونتيفيديو قرية ليس إلا»، بانسجام تام، وكأننا نؤدي رباعية «ريغوليتو» الأوبرالية. وبينما كانت الاثنتان تستعيدان ذكرياتهما في مدرسة الراهبات، أخذني نوربيرتو معه إلى «قدس أقداسه». كان الجهاز هائلاً. جعل سمّاعات على أذنيه وعلى أذنيَّ أيضاً. وطفق يدير القرص، وعند كل خط، كانت تُسمع أصوات غريبة ولغات مستحيلة، ولكن أيضاً سمعنا رجلاً من توكومان يتلهف على امرأة من ليما، وصوت رجل من ريو دي جانيرو يقول أن لديه خبراً سيئاً لرجل من بوغوطا. كانوا يتخاطبون بحروف وأرقام على شكل شيفرة، مثلا: CX1BT (ثم يوضحون مباشرة بعد ذلك: CX1- بطارية – أرض). كان ذلك مضجراً. لكن أصوات الكون كلها كانت هناك. ولا أستغرب إذا ما كان يراود نوربيرتو الأمل في أن يسمع صوت الرب، فذلك الجهاز

يبدو ذا قدرة غير محدودة. كانت تُسمع أصوات آتية بلا أدنى شك من المجرّات، حيث ربما يستريح الرب كل يوم أحد (وهي عادة اكتسبها منذ بدء الخليقة) مثلما نذهب نحن إلى بورتيسويلو أو إلى لا بالوما.

نهض نوربيرتو وأوعز إلي بأنه ذاهب ليدعو المرأتين حتى يستنّى لهما الاستمتاع أيضاً بتلك الأصوات، التي تختلط أحياناً بتصفيرات غريبة أو قعقعات مدوية، يمكن أن تكون رعوداً أو بنادق رشاشة أو مجرد قهقهات للشيطان.

واصلتُ الاستماع وقد بِتُّ مفتوناً بموسيقى الكون. صوت حادٌّ ومع ذلك نقي، من بوغوطا، استطاع ربط اتصال متقطِّع، بين «حوِّل» و«حوِّل»، مع صوت آخر ذي لهجة كاريبية دون أدنى شك، ربما من ماراكايبو، ثم بدأ الصوتان يتحدثان ويعلِّقان على نتائج البيسبول لليوم الأخير. وبما أن تلك المحادثة أصابتني بالملل الشديد، حرَّكتُ القرص. وحينئذ وصل إلى سمّاعتي صوت يقول: «ريتا تنادي كلاوديو. حوِّل». لم أصدق أذنيّ. ولكن بعد مرور دقيقتين، سمعت من جديد «ريتا تنادي كلاوديو. حوِّل». أحسستُ بنوربيرتو وهو يزيل السماعة من أذني. كان قد رجع مع ماروخا وماريانا وأنا لم أكن قد انتبهت لدخولهم. سألني نوربيرتو ما بي. وقالت ماريانا: «وجهك شاحب». «لا أدري، لا أدري.

ربما دوختني كثرة الأصوات». أما ماروخا فقالت: «يبدو لي أنك قد غبت عن وعيك». فقلت: «ربما، ولكن أياً يكن الحال، خلال دوختي أو فقداني لوعيي أو نومي، ظللت أسمع أصواتاً وأصواتاً ورسائل ورسائل». فقالت ماروخا: «لا أظن أنك قد غبت عن وعيك. فقد كانت عيناك مفتوحتين جيداً». فضحكت ماريانا: «كما لو أنك رأيت شبحاً».

ليست الأمور دائماً هكذا

أخيراً تعرّفتُ على الـ «باراغواس». كان خجولاً للغاية، إلى درجة أنني كنت أحس أمامه أنني ريتشارد قلب الأسد. ومع ذلك، فإن نظرته كانت صادقة وضحكته تلقائية ومُعدِية. ككل الباراغوائيين الذين أعرفهم، كانت له تقاسيم هندي أحمر، وزيادة على الإسبانية، كان يتحدث (ويغنِّي، خاصَّة) باللغة الغوارانية. كان يجب أن نلحّ عليه كثيراً، لكي يقبل، ولم يكن يفعل ذلك البتة إذا كان هناك أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص مستعدين للاستماع إليه. كان صوته رخيماً، ثم إن الغوارانية، زيادة على ذلك، لغة وكأنها خُلقت خصِّيصاً للغناء. وكما هو طبيعي، كانت إيلينيتا تنظر إليه مسلوبة اللبِّ.

كانا أحياناً يذهبان معاً إلى الفندق الذي يديره أبي، على ما أعتقد، لكي يتعود هذا الأخير على وجود الفتى. لم يكن أبي يوماً متزمتاً، ولكنه لم يكن ليجرؤ على إسداء بعض النصائح إلى ابنته. هو يعرف جيداً أنه ليس بين ايلينيتا وسونيا ثقة كافية، ولهذا طلب مني أن أنقل إلى ابنته بعض القواعد الأساسية في باب الحياة. هناك شيء يُرعبه في

الواقع، وهو إمكانية حملها من الـ «باراغواس». فلم أجد مفرّاً من الحديث معها في هذا الموضوع الشائك. ولكن يا للمفاجأة. ف الـ «باراغواس» إنسان خجول، ولكنه ليس غبياً البتة. فهو يتخذ احتياطاته كما يجب. قالت إيلينيتا: «اطمئن، كلاوديو»، قبل أن أفاتحها أنا في الموضوع. «وقل لبابا ألاَّ يخاف. فنحن لن ننجب له أحفاداً الآن». وقد جعلني ذاك الحوار أنغمس في تفكير عميق. كيف يتبدَّل الزمان! قلت هذه الجملة المطروقة وأنا بقرب أشجار الصنوبر، بصوت منخفض، وأنا أحسُّ ببعض الخجل. أحسست بسخافة موقفي، وبدوت وكأنني خالتي خواكينا.

وانطلاقاً من ذلك البرهان الدامغ على نضجه المبكِّر، قررتُ ألاَّ أعود إلى إطلاق لقب الـ «باراغواس» على خطيب أختي (ولا حتى ذهنياً)، وأن أسميه باسمه، الذي كان، ويالَفضيحتي، قصيراً أحاديّاً: خوسيه. عندما رأيت خوسيه وإيلينيتا يتنزهان في حديقة الفندق، متعانقين، تساءلت في أي مكان تُرى يرتكبان خطاياهما. فالخجول يقيم في بنسيون بشارع لا أونيون، مع شبان آخرين من الباراغواي، وهناك لا يُسمح بهذا النوع من الزيارات، وخاصة زيارات فتيات قاصرات. لا بد أن يكونا قد وجدا حلاًّ!

وفي طريقي، اكتشفت أيضاً أن هناك نقوشاً جديدة على جذوع الأشجار، حروفاً أولى لعدة أسماء، ولكن العاشقين المفترضين هذه

المرة كانوا قد استغنوا عن القلب المعهود. ومن بين تلك الحروف الجديدة، أثار انتباهي (لأسباب معروفة) حرفان: «ك» و«ر». وصدرت عني حركة فجائية أردتُ بها أن أطرد ذلك الاحتمال، كمن يطرد سرباً من البعوض. ثم فكرتُ أنه لو كانت ريتا صاحبة ذلك النقش، لما كانت لتكتب حرف «ك» قبل حرف «ر»، بل لكانت رتَّبت الحرفين هكذا: «ر» و«ك»، كنت متأكداً من ذلك.

كان قد مضى زمن طويل دون أن أنعم بوجودي وحيداً بين أشجار الصنوبر المضيافة. ولم تدم وحدتي طويلاً. حيث ظهرت سونيا وجلست على أحد المقاعد الوقورة المنسجِمة مع المحيط، كتلك التي توجد عادة في الساحات العمومية، والتي كان أبي قد اقتناها في أحد المزادات. وبدأت سونيا حديثها معي: « قل لي: منذ زمان وأنا أريد أن أسألك. إذا كانت علاقتكما أنت وماريانا تسير على أحسن ما يرام كما يبدو، فلماذا لا تتزوجان؟» لا أدري جيداً لماذا أغاظني السؤال، وأوشكت أن أقول لها ألا تتدخل في شؤوني، إنها ليست أمي، إلخ. وأدركَت هي ما يجري في داخلي فتمتمت قائلة: «سامحني»، فاحتفظتُ بباقة ملاماتي. ولم أندم على ذلك، لأن سونيا ليست امرأة شريرة، ثم إنها تسعد حياة أبي.

صحيح أن طريقتهما في التعبير عن حبِّهما (أستبعد إمكانية ألاَّ يكون بينهما حب) هي لغز بالنسبة إلي. فلم أرهما قطُّ يتبادلان

مداعبة وبالأحرى، يتبادلان قبلة علناً، ولا حتى عندما يكونان بين أفراد العائلة، ولكنّي لا أعتقد أن ذلك التحفظ يعود إلى حياء مبالغ فيه بل أمِيل إلى اعتباره أسلوب حياة. ومن جهة أخرى، علاقتهما مفعمة بالمرح، وأستطيع أن أقول (ولن أجرؤ أبداً على قول هذا لأحد بهذه العبارات) أن علاقتهما إداريًّا طيبة. وها أنا مرة أخرى أحس وكأنني الخالة خواكينا.

وأخيراً أجبت سونيا: «لم نتكلم حتى الآن عن هذه الإمكانية. ثم ألا ترين أن الزواج ليس سوى إجراء وأنه لا يكاد يعني شيئاً بالنسبة لاثنين يعيشان معاً؟» فرفعت سونيا رأسها، لا أدري هل كانت تنظر بعيداً أم أنها كانت تنظر داخلها، ثم قالت: « ليست الأمور دائماً هكذا».

ماطيو، من جديد

منذ أن زار كلاوديو بيت نوربيرتو وماروخا، واستحضروا معاً ذكرياتهم في كابورُّو، بدأت الحارة التي قضى فيها طفولته تحضره مراراً في الحلم، وبشكل خاص، شخصية الأعمى ماطيو. وكان يراوده إحساس بالذنب عندما يصحو. كان يعلم أنه، بعد زمن من زيارته لماطيو، لكي يقول له «وداعاً، مؤقتاً»، غادر هذا الأخير الحارة. ولم يغادرها فقط، بل إنه تزوج أيضاً. وكان قد حاول مراراً أن يحصل على عنوانه الحالي، ولكن دون جدوى، ولكنه الآن يعاتب نفسه على عدم إلحاحه في ذلك. من المستحيل أن يختفي شخص لم يخرج من مونتيفيديو، دون أن يترك أثراً.

كلَّم نوربيرتو في التلفون، وهذا الأخير، رغم أنه لم يكن على صلة بأسرة ريكارطي، فقد حصل له على رقم ماريا إيوخينيا. فاتصل بها، وبدت مسرورة لاكتشافها أن كلاوديو لم يكن قد نسيهم، فأعطته، طبعاً، عنوان ورقم تلفون أخيها. «لا تتصل به في التلفون. من الأفضل أن تذهب لزيارته، وبذلك تكون مفاجأة سارة بالنسبة إليه. لماذا لا تذهب مساء الأحد؟».

وذهب مساء الأحد. لم يكن بيتا فاخراً، ولكنه مع ذلك، من طابقين، في بونتا غوردا، أمام الشاطئ. فتحت له الباب امرأة شابة، جميلة، خفيفة الروح. «أنت كلاوديو أليس كذلك؟ أنا زوجة ماطيو، لويسا. أخبرتني أخت زوجي أنك ستزورونا. ولكن ماطيو لايعرف شيئاً. تعال معي».

وتبعها هو، كأنها ستقوده إلى الماضي. كان متطلّعاً لذلك اللقاء، ولكنه كان قلِقاً بعض الشيء أيضاً. فكّر أنه الآن لم يعد طفلاً، وأن ماطيو الآن يجب أن يكون في الثالثة والثلاثين من عمره. كيف ستكون هذه العلاقة الجديدة، رجلاً لرجل؟ فتحت لويسا أحد الأبواب، ودخلا قاعة يملأها النور، بنافذة كبيرة تطلّ على البحر. رأى ماطيو جالساً على كرسي هزاز، مولّياً ظهره لذلك المشهد، يستمع إلى الراديو. وخيّل إلى كلاوديو أنه لم يتغير كثيراً، رغم أنه للوهلة الأولى استطاع أن يلاحظ أن شعر رأسه قد خفّ قليلاً، وأن وزنه قد زاد بعض الشيء.

قالت له لويسا: «أطفئ الراديو، جئتك بزائر مهم. حاول أن تعرف من هو». وضحك ماطيو ضحكاً شديداً. «تعال، كلاوديو، أريد أن أضمك إلى صدري». وتبادل كلاوديو ولويسا نظرة مندهشة. فاقترب ماطيو من كلاوديو وضمّه إلى صدره بقوة وودّ.

«أرجو ألا تردّا هذا الكشف المفاجئ إلى الحدس المعروف الذي

يتمتع به الضرير، هه. ما جرى هو أن أختي المعروفة في حارة كابورو العريقة بعدم قدرتها على كتم الأسرار، اتصلت بي قبل حوالي نصف ساعة. على كل حال، أنا أشكرها لأنها أتاحت لي الفرصة حتى أستعد لاستقبال هذه الشخصية السامية». فقالت لويسا: «آه، خائنة. لا أحد يستطيع أن يغلب أخت زوجي».

لا شك أن ماطيو كان مسروراً. عندما بدأ كلاوديو بالكلام، قاطعه قائلاً: «غير معقول، صوتك الآن! كأن اللحن الذي كنت أسمعه من قبل معزوفاً على كمان، أسمعه الآن على كمان جهير. آه، ولكن لكل شيء حدود. ما أزال غير قادر على تصوُّرك بجسم وحضور رجل». كانت لويسا تشاهد اللقاء مسرورة. وخرجت لحظة ثم عادت تحمل بضعة كؤوس ومشروبات وصينية بمكعبات الثلج.

«وما رأيك بحالتي الجديدة؟ ألاحظت سِنَّي زوجتي الأماميين الظريفين كسِنَّي أرنب؟ لذلك أقول لها أنها ليست عرَّافة فقط، بل عرافة بسِنَّي أرنب. وأنت؟ هل واصلت الدراسة؟ ألديك خطيبة؟ كيف حال الوالد؟ سمعتُ أنه الآن مدير فندق وأنه تزوج من جديد. وأختك؟»

أمام ذلك السيل من الأسئلة، أخذ كلاويدو يفصِّل الأجوبة، التي كانت تثير أسئلة جديدة، بطبيعة الحال. كان صديقه مبتهجاً، ولكن

كلاوديو لم يكن متبجِّحاً ليردَّ ذلك فقط إلى زيارته. ماطيو، بكل بساطة، كان إنساناً سعيداً.

ومع ذلك، لم يكن كلاوديو ليستوعب بسهولة صديقه وهو بكل تلك الخفة وذلك النشاط. ثمة ركن في ذاكرته كان يشتاق إلى ماطيو القديم، إلى الهدوء الذكي لماطيو ريكارطي الآخر، الذي عرفه في كابورُّو.

عندما تركتهما لويسا وحدهما، ظل الأعمى صامتاً للحظات ثم قال: «أظن أنك تستغرب رؤيتي مثرثراً مبتهجاً. حتى أنا أستغرب سلوكي أحياناً. أتعرف ماذا جرى؟ تغير كل شيء منذ أن التقيت بلويسا. في حالتي كضرير غبي بعض الشيء، لم أكن أجرؤ على تصور حياة كالتي أعيشها الآن. من يستطيع تحمُّل ضرير كزوج؟ ضريرة مثله؟ ربما، ولكنني لم أجدها. ذات مرة اقتربت مني فتاة، كان اسمها ريتا، ولكني اكتشفت بعد ذلك أنها لم تكن ضريرة، ولم تعجبني الخدعة. أنا ولويسا أحببنا بعضنا من خلال الفلسفة، الرياضيات، الأدب، الثقافة بوجه عام. بوسعك أن تقول أن كل هذه الشحنة غير كافية للحب. وقد تكون محقّاً. ولكن لولا تلك الشحنة لما عرف كلٌّ منا الآخر ولما تعمَّق في معرفته، ولما أحببنا بعضنا كل هذا الحب. والداي وأختي يقولون لي أن لويسا جميلة، وأنا لست بحاجة إلى أن يؤكدوا لي ذلك. أعرف أنها جميلة. مسيرة فريدة، أليس كذلك؟

مِن تجريد الرياضيات إلى حب الأجساد الحسّي. أؤكد لك أنني أحبها بحواسِّي الأربع، ولست بحاجة إلى الحاسة الخامسة. على كل حال فإن حاستنا الخامسة هي روح الدعابة. ماذا نريد أكثر من ذلك؟ ثم إن أصابعي ليست عمياء، أصابعي تعرفها جيداً».

وقال كلاوديو: «بيتك رائع». «نعم، أحب الجلوس أمام البحر. لا أرى مياهه، ولكني أسمع الأمواج. أحياناً أظل لحظات طويلة قرب النافذة. شيء جميل أن نستمع إلى الأمواج. إنها تبدو متشابهة كلها، ومع ذلك كل موجة تأتي بصوت مختلف، وبلا شك، برسالة مختلفة كذلك. من المفارقة أنني أتحدث ثلاث لغات، ولا أفهم ما تقوله الأمواج! كم ينقصنا لكي نقضي على أميتنا! ولكنني أذعن بالنهاية وأقول لنفسي بأن الأمر، على أية حال، ليس في غاية الأهمية. صوت البحر هو موسيقى، ومن يخطر بباله أن يفهم اللغة الموسيقية لبراهمس أو باخ أو شونبرغ؟ هم لم يؤلفوا ألحانهم لكي نفهمها، بل لكي نستمتع بها. والأمواج بالنسبة إلي، هي لحن Verkläte Nacht »[7].

بقي كلاوديو هناك ساعتين. عرضت عليه لويسا أن يتعشى معهما ولكنه كان على موعد مع ماريانا في قاعة سينمائية. فقالت له لويسا «يجب عليك أن تصحبها معك في الزيارة القادمة»، وقد قرّرت

(7) الليلة ذات الوجه المتغيِّر.

فجأة رفع الكلفة بينهما ومخاطبته بـ «أنت» (بدل ضمير المخاطَب الرسمي). ودَّع ماطيو بعناق آخر، ورافقته لويسا إلى الباب. ونظر هو إليها بإعجاب. وقال «لا يمكنك أن تتصوري كم أنا مسرور لسعادة ماطيو». وأكَّدت هي، مبتسمة: «نعم، نحن سعيدان ومسروران جداً». والتقط كلاوديو ذاك المثنَّى قبل أن يختفي في الجو الذي تفوح منه رائحة الملح الصخري.

معجزة

في اليوم الذي زرنا فيه نوربيرتو، وعندما كنا نتأهب للانصراف، دعاني على انفراد، وسلَّمني ورقة مطوية. وقال «لكي تقرأها فيما بعد. إنها قصة قصيرة. لا أدري إذا ما كانت لها أية قيمة. ربما كانت ثمرة تآكل واختلال قناعاتي الدينية». لم أقرأها تلك الليلة في بيتي بل بعد ذلك بكثير، في بيت ماريانا. عنوانها «معجزة»:

«قدِّيسٌ صاحب كرامات. كذلك كان. نساء القرية المتعبِّدات كنَّ يحلفن أنهن رأينه يتفصَّد عرقاً ودماً، وأنهن رأينه يبكي. كانت في العاصمة وكالة سياحية تنظِّم رحلاتٍ لرؤية القدِّيس. كان بالنسبة لبعضهم القدِّيسَ ميغيل، وبالنسبة لآخرين، القديس دومينغو أو القديس بارطولومي، وهناك من أكَّد أنه القدِّيس سيباستيان، وذلك مستبعد، فقد كانت تنقصه السِّهام. وبما أن رجال الكنيسة أنفسهم لم يكونوا متَّفقين، فقد اختار أبناء الأبرشية أن يُطلِقوا عليه اسم القدِّيس فقط. وعلي أي حال، فإن الخوري كان مغتبطاً بسيل الصدقات الذي كان يصله.

مارسيلا لم تكن قد قدِمت إلى القرية في أية رحلة. فقد كانت

تعيش مع والديها دائماً هناك، وهي بالتالي تعرف القِّديس منذ طفولتها. كانت صورته حاضرة في أحلامها الطفولية منذ زمن. الآن، هي في السابعة عشرة من عمرها وهي أجمل فتاة في المنطقة كلها. حتى القدِّيس كان وسيماً، وعندما كانت تذهب مارسيلا إلى المصلّى وتركع أمام المذبح الجانبي، حيث يوجد هو، كان لتعبُّدها علامات للحب البشري لا تكاد تُلحَظ. وفي صباح يوم اثنين، والكنيسة فارغة، اقتربت الفتاة من القدِّيس ونظرت إليه نظرة طويلة وهذه المرة، ندَّت عنها تنهدة عميقة. ثم اقتربت أكثر وأخذت تقبِّل تلكما القدمين الجصِّيَيْن المتألِّمين بعناية. ثم رافقت تلك القبلات بمداعبات لهاتين السّاقين المتآكلتين.

وهنا أحسَّت بسائل يبلِّل ذراعها. لم تكن تريد أن تصدِّق أول الأمر، ولكن هذا ما كان يحدث. كانت معجزة جديدة، برغم كل شيء. لأن ذلك لم يكن بكاء ولا دماً ولا عرقاً. كان شيئاً آخر)).

وسألتُ ماريانا: ((ما رأيك؟)) ((لا أدري. تركَتني القصة حائرة بعض الشيء. لدي انطباع بأنها تجري على خطٍّ حدودي. ولكنه خط قلَّما يظهر في الأدب: هي الحدود التي تفصل الدين عن ((الإيروتيكا)).

ورفعَتْ أحد حاجبيها لتسألني عن رأيي: ((أنا أعجبتني، ربما لأنها تحدث بالذات عند ذلك الخط الحدودي. القدِّيس ((يتأنسن)).

عند السطر الأخير، يترك طبيعته الجصّية ليصبح من لحم ودم».
«وماذا ستقول لنوربيرتو؟» «سأقول له ما قلته لك».

الرأسمال شيء مختلف

في ذلك الوقت، بدأت ألتقي بالعم إيدموندو بكثرة، وهو شقيق أبي. فقد كنت أستلطفه، ولكن لم نكن نعرف بعضنا جيداً. فلم يكن يزورنا إلا في الجنازات (عندما توفيت أمي) أو في الأعراس (زواج أبي وسونيا). ومع ذلك، كانت علاقته بأخيه طيبة، وكانا عادة يتحدثان مع بعضهما في التلفون. ولكن إيدموندو لم يكن يحبُّ القيام بزيارات. كانت زوجته أديلا، والتي كانت تعاملني بحنان كبير في فترة طفولتي، عندما كنا نقيم بـ«كونستيتوسيون إي غويس»، قد توفيت بسبب خطأ طبي، أو ربما بسبب نقص في المعلومات: إذ أعطتها ممرضة تنقصها التجربة حقنة بمادة ما، واتضح بعد ذلك أن لديها حساسة من تلك المادة. كانت بالنسبة لعمي صدمة غير متوقعة. وكان كلاهما في عز شبابه، رغم أنني كنت أراهما كبيرين في السن. وأحسَّ العم إيدموندو، آنذاك، كأنه عدَّاء مسافات طويلة، قد خارت قواه، في منتصف السِّباق.

كلَّفه تجاوز ذلك الغياب أعواماً، وربما لذلك كرَّس نفسه تماماً للنشاط النقابي (كان موظفاً في بنك)، كان يقرأ كمهووس،

واكتسب بذلك ثقافة سياسية بمعنى الكلمة، باختصار: تغلب على الصدمة. وعندما كنتُ أنا ما أزال متردداً بين الاستمرار في الدراسة أو الانقطاع، قال لي، كعصامي حقيقي، بأن الجامعة ليست المكان الوحيد الذي يمكن للإنسان فيه أن يتخلص من «كونه حماراً»، بوسع الإنسان أن يتعلم بدافع شخصي، بالموهبة، وسترى عندئذ أن الثقافة التي تكتسبها تدريجياً، سواء استطعت أن تكسب منها مالاً أم لم تستطع، لم تغْد عذاباً بل متعة».

وفي النهاية، قررتُ ألا أسجِّل نفسي في الجامعة، وكرّست كل اهتمامي للرسم. وبدأت كذلك أقرأ (في البداية تقليداً لعمِّي إيدموندو وبعد ذلك صرت أقرأ مدفوعاً برغبة شخصية في ذلك) باستمتاع، لكن بجدية أكبر. كان هو مرجعيتي في موضوع السياسة، وبدأتُ أقرأ كذلك روايات ودواوين شعر وقصص، وكنت أحس أن ذلك يفيدني أيضاً كرسَّام. لقد كان انتماء عمي إيدموندو نقابياً فقط، ولكن كان اطلاعه واسعاً. وبذلك، دون أي نظام صارم، وبأفضل أسلوب دارج يملكه، بدأ يلقِّنني مختلف المعارف.

سألته ذات مرة كيف، وهو الذي لديه كل هذه الاهتمامات، لم ينخرط في أي حزب، فأجابني أنه قد فكّر في ذلك عدة مرات، ولكنه يحسُّ براحة أكبر في العمل النقابي. كان عمي رجلاً من الطبقة المتوسطة، بكل الآراء المسبقة والقيود التي يفرضها ذلك،

ولكن نشاطه في النقابة البنكية، حيث وصل إلى تقلُّد مسؤوليات دقيقة، كان يجعله يتصل باستمرار بالعمال، ويرى أن ذلك إثراء له، ليس فقط سياسياً أو اجتماعياً، بل كإنسان، قبل كل شيء. وكان يقول عنهم «إنهم أشخاص هائلون، ربما بسطاء، وبدائيون أكثر من كثيرين منا، ولكن عند تلك المشاكل التي نتردد نحن أمامها، هم يجدون حلولاً واضحة ولا يخطئون غالباً».

وهنا كان يطلق ضحكة صادقة دائماً، ليضيف قائلاً: «اسمع، أنا لا أعاني من أية عقدة نقص أمام الطبقة العاملة، ولكنني أعتقد أننا، إذا كنا من جهة نتعلم منهم، فهم بدورهم يتعلمون منا قليلاً، ولكن أقل مما نتعلمه نحن. العمل الجسدي، شيئاً فشيئاً، يمنحك معرفة أساسية، ربما ناتجة عن لمس الواقع بالأيدي، بينما معالجة الأرقام والجداول يحبسك في كهف من التجريدات. وحتى الثراء، ذلك الذي يتجلى في الأرصدة الخاصة الكبرى، بوجه خاص، تلك التي تتعامل بالعملة الأجنبية، هو ثراء مجرَّد. إن رصيداً من تسعة أو عشرة أرقام يحتل سطراً واحداً فقط، مثله مثل الرصيد (المكوَّن من ثلاثة أو أربعة أرقام)، في حساب موفِّر صغير. في البنك، الثراء ليس هو هكتارات وهكتارات من الحقول، ولا آلافاً من الأبقار ولا إقامات فاخرة في بونتا ديل إيستي، ولا أكواخاً مظلمة في شارع باراغواي. الثراء في البنك هو أرقام ليس إلا، والأرقام عادة ما تكون نحيفة،

بل بارزة العظام، مثل الرقم واحد والرقم سبعة، وحتى سمنة الستة والثمانية (بِلُغدودٍ وكرشٍ بارز) يختلف معناها، بحسب وجودها على يسار أو يمين الفاصلة الحاسمة».

وهكذا كان يستمر، واقعاً في شرك استعاراته المحاسباتية، إلى أن يهتف في النهاية: «يا للجنون! لا تأخذ كلامي على محمل الجد. اسمع، الرأسمال شيء مختلف».

الحزن يستولي على جوليسكا

لم أكن قد رأيت جوليسكا تبكي من قبل، فقد كانت اليوغوسلافية تبدي دائماً حيوية فريدة، وطاقة هائلة، واستعداداً غريباً للاستمتاع بعملها، وكانت هذه ميزة تثير الذهول والحيرة بين المونتيفيديين (الذين لا يمارسون، بوجه عام، هذا النمط من «فلسفة المتعة») الذين تعرّفوا عليها داخل البيت أو خارجه.

ولكني هذه المرة وجدتها تبكي، في الفناء، وهي منزوية في حزنها، بحيث لم تشعر بي عندما دخلت البيت، والذي عادة، في تلك الساعة من المساء، لا يكون فيه أحد. وضعتُ يدي على كتفها فانتفضت المسكينة واقفة، وقد استولت عليها الدهشة، والخجل، خاصة، لأن شخصاً اقتحم خصوصيتها، بشكل غير متوقع.

«ما بكِ، جوليسكا؟ هل تحسّين بألم؟» ولكنها عادت إلى البكاء، إلى بكاء أشدَّ هذه المرة. ثم تمالكت نفسها فجأة، ورمقتني بنظرة تثير الشفقة. «هل تعطيني إذْنة بِعِناقة؟». «طبعاً، جوليسكا، طبعاً». وعانقتها، فأثار ذلك العناق فيها نوبة جديدة من البكاء.

سألتها من جديد ما بها، وإذا ما كانت تحس بالألم. «رُوحَتِي تؤلمني! هذا ما يؤلمني!» هذه المرة، على غير المعتاد، لم يضحكني كلامها الذي يثير الضحك، عن غير قصد منها. في الواقع، كان من المستحيل أن أضحك أمام ذلك الأسى الشديد. «هل وصلك خبر سيئ من بلدك؟» حرَّكت رأسها نافية: «كلُّها شيء غريب. لم أحس من قبل بحزن كهذا».

جئت لها بكرسي، أجلستها عليه، وقدَّمت لها كوب ماء. ولم أعُد أعرف ماذا بوسعي أن أفعل أيضاً. وأحسست أنه علي أن أجد حلاً للمشكلة على الفور، وإلا فسينتابني البكاء أنا أيضاً، ممَّا قد يفقدني هيبتي أمام جوليسكا التي كانت إحدى مُسلَّماتها في الحياة هي «الرِّجالة لا يدمعون». ولِحسن حظي، سبق بوحُها بكائي. اعترفَت لي بأن فكرها مشوَّش. لكن، قالت لي بألاَّ أفكر بأنها غير مسرورة بوجودها بيننا. «أنتم بمثابة أُسْرٍ لي». وكرَّرت الجملة مراراً. ولكن، فجأة، في ذلك المساء، أحسَّت (لا تدري لماذا) بحنين شديد يعتريها، إلى بلدها الأصلي. أرادت أن تتذكر مذاق فواكهها البرية، رائحة الحقول عند المساء، وجه أمها، صوت العندليب، الأمواج ذات الخضرة الزرقاء لبحيرة سكادار، السماء الزرقاء كأنها سقف. حنين تقليدي: هكذا شخَّصتُ حالتها. انتابتني الرغبة في أن أوضح لها بأن «هنا توجد سماء أيضاً».. فتمتمَتْ: «آه، نعم، ولكن يوجد

نجومٌ كثيرٌ، لا يشبه السَّقفة. يشبه المَسْرَحة».

سألتها إذا ما كانت تريد أن تعود إلى بلدها. تعود؟ أبداً. «إذا عودة، أنا يشتاق كثيراً للأوروغواي، كلُّكم طيبات جداً معي. يشتاق شواطِئة، أُسْرِي بِـ لا بيبدراس» «وإذن؟» «اطمئنان، وخاصة لا يقول شيئاً للسيد بابا ولا للسيدة سونيا، ولا للطفلة إيلينيتا، أنا مجنونة بعض الشيء. أنت يفهم؟ غداً يكون جد مسرورة. يعرف جيداً نوبات حزني. الحنين إلى كِرنا غورا. كيف لا. ولكن ليس لذلك يسافر إلى كِرنا غورا. لكي لا أحس في كرنا غورا حنينا إلى مونتيفيديو. أنت يفهم؟»

أنا «يفهم»، ولكن إلى حدٍّ ما. على أية حال، لاحظتُ باستغراب أن إسبانيتها كانت قد تحسَّنت بعض الشيء. لا شكَّ أن الحزن في حالتها يقوم بدور تعليمي. وفجأة، وكأن مصباحاً اشتعل بذهني. سألتها كم عمرها. تناولت يدي ورسمت بسبَّابتِها الرقم 52، على كفِّي. وأحسستُ بارتياح كبير. يا لحظِّنا. هي لن تغادر بيتنا. واحتفيت بذلك الاكتشاف في قراري: جوليسكا ليست مجنونة، بل بلغت سن اليأس. ولكن، بطبيعة الحال، من الممكن، هكذا أعتقد أنا، وأتصَّور، أنَّ بلوغ سنَّ اليأس في المنفى موجع أكثر من بلوغه بين أهل بيتك.

الفعل الماضي الناقص

والموت موجود داخل الحياة.

فرناندو بيسووا

قد يصعب تصديق الأمر، ولكن كآبة جوليسكا الشبه حِرفيّة، تركتني معطوباً بضعة أيام. أما هي فقد عادت إلى حالتها العادية في أربع وعشرين ساعة. في اليوم التالي لحالة الإحباط تلك، أعدَّت الإفطار في المطبخ وهي تغنِّي. ولم تكن تغني لحناً من ألحان بلدها البعيد، كما هو متوقَّع بعد نوبة الحنين تلك، بل تانغو (من خلال الموسيقى عرفتُ أنه «ركن قديم») ترجمه لها إلى اليوغوسلافية أحد أقاربها الساكنين ب «لاس بييدارس». وانتابني فضول شديد: كيف يا تُرى يمكن أن يقال بتلك اللغة العتيقة، بيت معروف كهذا: «callejón de turbios caferatas/ que fueron taitas del bandoneón»[8]. ولكنني تغلبت على فضولي ولم أسألها. واكتفيت بالثناء على القهوة بالحليب والخبز المحمص اللذين أعدتهما. غير أنني لم أستطع التخلص من تلك الكآبة الغائمة، المكفهرة. كنا قد

(8) زقاق القوادين المخادعين، الذين كانوا ملوك البندونيون (آلة موسيقية شبيهة بالأكورديون).

عشنا أياماً باردة ممطرة، بتلك الرياح الممقوتة التي تجعلنا في فصل الشتاء، ننسى كم هي مضيافة وممتعة مدينة مونتيفيديو، في كل فصل من فصول السنة المتبقية.

ثم إن ماريانا كانت قد ذهبت مع أوفيليا إلى مالدونالدو. ولم تكن لدي الرغبة حتى في الرسم. في الوكالة كنت أكتفي بما هو أساسي، دون أي إبداع. حتى ساعاتي الإيروتيكية القديمة بدأت تبعث في نفسي الملل.

عندما كنت أذهب إلى الفندق، ونظراً للبرد القارس والمطر الذي لا يكاد يفتر، لم أكن أستطيع البقاء في الحديقة، حيث مجاورة الأشجار العتيقة تبعث في نفسي الطمأنينة والنشاط في آن واحد. وذات مساء، دخلتُ إحدى الغرف الخالية الموجودة بالطابق الثاني (من سيجيء إلى مونتيفيديو في هذا الشتاء اللعين؟). وجدت هناك كرسياً هزازاً، جعلته أمام النافذة وهناك قعدت ساعتين. وحدي. في صمت.

ودون أن أنوي ذلك تحديداً، وبسيطرة غير متوقعة على فوضاي الشخصية، بدأت أفكّك ماضيَ الناقص، أعني ماضيَ، بصيغته غير التامة، الأوَّلي، المتخوِّف، غير الناضج، الذي يعاني عجزاً، غير المتقن، المُحرَّف، غير الحصين، الهش، المقصِّر، إلخ. أي عمل أنجزته حتى الآن؟ العالم يُستنزَف ويتمزَّق شيئاً فشيئاً، في حرب غبية.

ملايين القتلى وأنا ماذا أفعل؟ ماذا أفعل في كرسي هزاز أتأمل كآبة الشتاء من خلال كآبتي الشخصية؟ كنت بمثابة أسيرٍ لطفولتي التي عشتها بكابورُّو، ومع ذلك لم أعُد إلى هناك ولو مرة واحدة، كأنني منفيٌّ كابورُّو.

ولكن، هل كانت تلك الحارة مكونة أساساً من الحديقة وملعب ليتو وتينة نافذتي أم أن الناس الذين عاشرتهم أهم من كل ذلك، الناس الذين ما أزال أتذكرهم، ولعلها بالأحرى، أيضاً، أولئك الذين نسيتهم؟ هل كانت كابورُّو ذلك الجرس الطنان للترام رقم 22 وأعاجيب رجل الدراجة النارية، هل كانت توقُّعَ مرور القطار على المزلقان القريب من الأوروغوايانا، أم كانت أحاديثي مع ماطيو وبشكل خاص، ذراعَي أمِّي العطوفين، التي كانت تبثُّني دائماً نفَساً من الحنان الذي أفتقده الآن؟ من تكون أو من كانت أو من ما تزال تكون فتاة التينة، تلك الـ «ريتا» التي تسللت إلى غرفتي وإلى مقهى سبورتمان وإلى ذلك المدخل المظلم بشارع دييسييوتشو والتي تتركني دائماً مرتجفاً خائباً؟ كنت متأكداً من شيء واحد: لم أكن أريد أن أعرف أي شيء عن ريتا من جديد، ولكن تُرى هل كانت هي، أيضاً، لا تريد أن تعرف شيئاً عني؟ ليت الأمر كذلك! فكّرتُ، وأنا أتأرجح على الكرسي الهزاز، وبين شكوكي. حبي لماريانا لم يتغير بل ازداد قوة، عندي وعندها. ولكني أحسستُ أنه في خطر.

وهذا ليس اكتشافاً فريداً. من لا يشعر بأنه مهدد في هذا الإطار وفي هذا الزمان؟ وليست المسألة حتى مسألة إطار أو زمان. نحن نعيش وعشنا دائماً تحت التهديد. الموت موجود داخل الحياة كما قال أحدهم. لا أفهم كيف كان نوربيرتو يستطيع أن يكرر كببغاء (الآن، لم يعد يفعل ذلك، لحسن الحظ) الدروس المهترئة للأب ريكاردو، عندما كان هذا الأخير يملأه ذعراً بحديثه عن الجحيم. (وللحيطة، لم يكن يحدِّثه عن الجنة، ذلك الحقير). لقد توصَّلتُ، بالنهاية، إلى أن الضمير هو جنتنا وجحيمنا، في الوقت نفسه. يوم الحساب والعقاب المشهور نحمله هنا، في صدورنا. ونحن في كل ليلة، عن غير وعي منا، نواجه يوم الحساب. وحسب الحكم الذي يصدره ضميرنا، ننام مرتاحين أو نغرق في الكوابيس. لسنا لا سليمان الحكيم ولا حتى محلِّلين نفسانيين. نحن قاضٍ وطرَف، مدعٍ عام ومحامٍ، لا مفر! إذا لم نكن نستطيع إدانتنا أو تبرئتنا، مَن بوُسعِهِ أن يفعل ذلك؟ من تتوفر لديه كل هذه العناصر، على سرِّيَّتِها، لكي يُصدِر حكما علينا، مثلنا نحن أنفسنا؟ ألا نعرف، منذ البداية ودون أدنى تردد، متى نكون مذنبين ومتى نكون أبرياء؟

فكرتُ في أبي، في جدي خابيير، في سونيا، في إيلينيتا، في خوسيه، في عمي إيدموندو، وطبعاً في ماريانا. ولكن ماريانا كنت أعرفها جيداً، بطريقة تكاد تكون مِيليمترِية. أما الآخرون، فقد

كنت أجهل أشياء كثيرة عنهم. الوقت يمضي، يضيع مني، يضيع منا جميعاً. كيف بوسعنا أن نُحبَّ بعضنا أكثر؟ كيف نقفز حواجز اللامبالاة؟ لا أريد أن أنتظر إلى الجنازات حتى أقدِّر من هم قريبون مني، إن الموت موجود داخل الحياة، هذا صحيح. ولكن نستطيع أن نرسله في إجازة. أليس كذلك؟ فهو يعمل كثيراً ويستحق عطلة. ولا يجب أن نشتاق إليه، لأنه سيعود، على أية حال، وعندما سيفعل ذلك، سيضع يده على كتفنا.

القديمة الأكثر جِدَّة

كان الجسدان مستلقيين في سكون، سعيدين وممتنين، فالتنفس الوئيد يبعث إحساساً مزدوجاً بِدَعَةٍ تامة. وحدها الأيدي سعت إلى بعضها بعضاً. فقد كانت اللحظة لحظة سكون وصفو.

قالت ماريانا: «لا بد أنني قديمة». فتحرَّكت يد كلاوديو، متسائلة. «نعم، لابد أنني قديمة لأنني لا أحب التجارب ولا الأوضاع الغريبة، تتأرجح، تنسكب. لا بد أنني قديمة، أليس كذلك؟».

واصل كلاوديو النظر إلى عينيها، ثم قال: «أحب القديمات». فسألت هي: «بالجمع؟» «لا، بالمفرد. أحب ماريانا، القديمة الأكثر جِدَّة التي أعرفها». «وريتا، هل هي قديمة؟» «لا أعرف، على وجه اليقين، كيف هي ريتا، ولكنني متأكد أنها ليست قديمة». «وأنت؟ ماذا تكون أنت؟» «أنا رجل عديم الجدوى».

من الشارع، وصلت صفارة سيارة إسعاف. ظلا صامتين حتى ابتعد الصوت. عندها قال كلاوديو «أتدري ماذا سألتني سونيا، منذ فترة؟ قالت لي، إذا كانت الأمور بيننا تسير على أحسن ما يرام كما يبدو، فلماذا لا نتزوج». فقالت ماريانا: «السيدة تتدخل قليلاً فيما

ما لا يعنيها، أليس كذلك؟» «هكذا بدت لي أنا أيضاً، ولكني لم أقل لها شيئاً، طبعاً. وهي أحست أن سؤالها لم يَرُقني فبادرت بالتراجع، ولكنها جعلتني أفكّر في الأمر». «تفكر؟ لا تقل لي أنك تريد الزواج». «لم أقل سوى أنها جعلتني أفكّر في الأمر». «آه» «وأنت؟ ما رأيك؟» «لا رأي لي في الموضوع. لم أفكر في ذلك إطلاقاً. ولكن قل لي: «ألسنا سعيدين هكذا؟» «بلى» «إذن؟» «الحقيقة هي أنني منذ أن حرَّك جمجمتي ذلك السؤال الذي طرحَته سونيا وأنا أتخيل كيف بإمكانها أن تكون حياتنا اليومية لو حصلنا على شقة تكون لنا في جميع الأوقات وليس فقط في نهاية الأسبوع، عندما تذهب أوفيليا إلى مالدونالدو». «إذا كان لدينا المال الكافي لندفع ثمنها، نستطيع أن نحصل على الشقة دون أن نكون مجبرين على الزواج».

الآن جاءت من الشارع أصوات نساء يتصايحن. «إنهما العجوزين اللتين تسكنان قبالتنا. تشتبكان كل مساء. إنه بمثابة صلاة «التبشير» اليومية بالنسبة إلي. واستغرق الاثنان في الضحك. وقال كلاوديو: «ماذا لو تركنا الأمر للمصادفة؟» «نرمي القُرعة». «ليس بهذه البساطة. نريد شيئاً أكثر تسلية. الانتقال إلى شقة أخرى، شراء بعض الأثاث، كل ذلك يتطلب نقوداً، أليس كذلك؟ أنا أقول أذهب مرة واحدة، فقط مرة واحدة بنقود قليلة، إلى الكازينو. إذا ضيعنا

تلك النقود نستمر كما نحن الآن. وإذا ربحنا ما يكفي، نتزوج ونتنقل إلى شقة جديدة». «موافقة. ولكن، اذهب وحدك إلى الكازينو، هه. علاقتي بالقمار ليست طيبة. ألم أقل لك لا بد أنني قديمة؟».

التّحتُربة الأولى
(مقتطف من مسوّدات أبي)

لماذا أكتب هذه المسوَّدات؟ عندما تتراكم الأعوام في عمر الإنسان، يبدأ بإدراك أن الوقت يفلت من بين يديه، وربما لذلك، يبدأ بتنمية الخداع النفسي عنده، بفكرة أن الكتابة عن الحياة اليومية بوسعها أن تكون طريقة (بدائية إن شئتم) لإيقاف تلك الكارثة. والكارثة لا يمكن إيقافها، بطبيعة الحال. ما من شيء أو أحد بوسعه أن يوقف الزمن. ومع ذلك، هناك أحداث كثيرة وصور تمرُّ أمامنا (مناظر، أخبار، أفراح، وجوه، قراءات، مفاجآت، مآسٍ، أخطار، أيام حافلة، جموع) وبطريقة ما، تغيِّر حياتنا، ولو بِمقدار بضعة أجزاء من ألف، عن الوجهة المحدَّدة. وبعد مرور أيام أو شهور أو أعوام، ربما نتأسف لأننا لم نسجِّل تلك الوقائع والأحداث.

الحقيقة هي أنني غير مقتنع بأسلوب اليوميات الحميمية. أعتقد أن المناسبات التي يستطيع فيها الإنسان أن يقترب من أعماق ذاته، معدودة على أطراف الأصابع، في لمحات زمنية قد تكون رائعة أو مهولة. ولكن ذلك قد يحدث ثلاث أو أربع مرات في حياة

بأكملها. ولذلك، فالمسألة لا تكمن في أن يتصنع الإنسان يومياً أنه يلمس تلك الأعماق، بينما هو في أحسن الحالات، بالكاد يصل إلى التَّحتُربة الأولى.

وبرغم كل شيء، ليس من السّخف أن يحاول الإنسان أن يكون نزيها في نقل ما يرى، ما يلمس، ما يتذوق، ما يشم، ما يسمع. أريد أن تكون هذه المسودات بمثابة «دفتر السفينة»، ولكن أيضاً بمثابة دفتر للحواس، يتضمن أيضاً تلك التأملات الطارئة، التي قد تثيرها تلك التقييمات والاختبارات في دهليز الذات.

أجريت اليوم في الفندق حديثين، مثيرين للقلق، إلى حد ما. كان الأول مع أميركي من أيوا. اعتقدت أنه نائب مدير أو نائب رئيس ثالث لشركة متوسطة الأهمية. إذ لو كان من مستوى أرفع، لما كان ليلجأ إلى هذا الفندق. المهم: سألني إذا ما كان بوسعي أن أحصل له على call girls (فتيات الهواتف)، فقلت له لا، وأن هذه الخدمة لا تقدمها إلا الفنادق ذات الأربع أو الخمس نجوم. أبدى أسفه لذلك، لأن هذا البلد في الواقع يروقه. سألته لماذا، فقال لأن ليس به سود. وبالتالي فإن أية عاهرة ستكون بيضاء، بلا شك. قلت له أن البلد يشمل أيضاً حوالي اثنين بالمئة من السود. أبدى سروره بطريقة صاخبة لتلك النسبة المئوية، لأن «اثنين بالمئة هي لا شيء، يمكن سحقهم في أية لحظة». سألته عن مهنته. وفوجئت لأنه لم يكن

لا نائب مدير ولا نائباً ثالثاً لأي رئيس، بل أستاذاً لفقه اللغة الإسبانية وبأنه قد صدر له حديثاً كتاب حول «موضوع البلبل في القصائد الشعبية الإسبانية». قال لي أنه من عشاق الأدب الإسباني الكلاسيكي (الحقيقة أنه يتكلم الإسبانية بطلاقة تامة) وبشكل خاص، لإسبانيا، لأسباب كثيرة من بينها أن البلد لا يوجد فيه سود أيضاً. كان يستغل إجازة التفرغ العلمي لزيارة عدة عواصم لأمريكا اللاتينية، بحثاً عن مواد للمشروع الذي يعمل عليه، ويدور موضوعه حول اختلاف المصطلحات الإيروتيكية والإباحية من ريو غراندي إلى باتاغونيا. وعندما سألني أين بإمكانه أن يجد أوضح المصطلحات الأوروغوائية حول الموضوع المذكور، نصحته أن يلجأ إلى سيرو وبونتا ديل إيستي، فسجَّل ذلك بعناية في مفكرة كبيرة. والحديث الآخر جرى مع عسكري أوروغوائي لم يكن ذا رتبة عالية (لعله ملازم أول) جاء ليلتقي بزميل أرجنتيني له من نفس الرتبة. وبما أن هذا الأخير لم يكن موجوداً، فقد قرر انتظاره، فعرضت عليه أن ينتظره في مكتبي. ثم سألته إذا ما كان يعرف الأرجنتيني. فقال: «نعم، طبعاً، التقينا عدة مرات. أنا أحب التحدث معه. الحديث معه مفيد دائماً. الأمور بالنسبة للأرجنتينيين أوضح. وأنا أعني جميعاً، من الجنرالات إلى العرفاء. أما هنا فلا. ضباطنا القدماء حقنوهم بفيروس البيروقراطية، الذي يمكن أن يؤدي

إلى ورم متأقلِم، أو حتى إلى نمو، لا يمكن السيطرة عليه ولا علاجه، لخلايا الديمقراطية. هذا البلد يتفكك الآن ويجب إعادة تركيبه بقوة السلاح قبل فوات الأوان. والماركسية ما هي إلا عدوى، ألم تكن تعرف ذلك؟»

لأول وهلة، فكرت أن الملازم الأول يستطيع أن يكون حلقة جيدة لجلب زبناء يعدون بإمكانيات ربح جيدة. ولكني رغم كل شيء، أجبته لا، لم أكن أعرف ذلك.

توقّف قبول المراهنات

توجّه كلاوديو إلى فندق باركي أوطيل، يغمره قلق وحب استطلاع لا يمكن مقارنتهما إلا بما أحسه، بلا شك، دافيد ليفينستون عندما كان ضيفاً لدى الملك ماكولو ووصل إلى أحد أطول الأنهار الأفريقية: الـ «زامبيزي». كل ذلك الكمّ من طاولات القمار الخضراء، وعجلات الحظ وأكوام الفيشات ومديري القمار بصوتهم الذي يشبه صوت الجهير أو صوت الميتسوسوبرانو، والسيدات الثريات والأغنياء السابقين – فرسان في أسمال بالية – ووزراء المستقبل وحواة اللعب والمحظوظين المتهللين والمنتحرين بالقوة، كل ذلك بدا لكلاوديو، الذي لم يكن قد وضع قدمه يوماً على أرضية كازينو، غابة مدهشة وموحية.

عند دخوله كان قد اشترى عدداً متواضعاً من الفيشات، يعادل نصف المقدار الذي حدده والذي قرر ألا يتجاوزه. ولكنه لم يشأ أن يتسرع في المراهنة. جال بين بضع طاولاتٍ للعبة الروليت، ثم توقف عند لعبة سرعان ما انتبه إلى أن المراهنة فيها تتطلب بصيرة وكفاءة وبراعة فائقة، وهي أشياء لا تتوفر لديه.

توقف أخيراً عند طاولة لعبة روليت يعرف قواعدها معرفة لا بأس بها، بفضل الأفلام العديدة التي شاهدها حول لاس فيغاس ومونتيكارلو، وقرَّر أنها لعبة في متناوله، ليس فقط من حيث قواعدها، التي تُحفظ بسهولة، بل كذلك من حيث اعتمادها الكامل على المصادفة البحتة، التي تجعل جميع اللاعبين متساويين. في هذه اللعبة ليست هناك خدع ولا امتيازات. واقتنع بسرعة أنها اللعبة الأكثر ديمقراطية.

اقترب من الطاولة أكثر، وأخذ يراقب، من وراء كتف أحد اللاعبين، ويسجل في ذهنه الإمكانيات المختلفة ويتدارس مع نفسه أفضلها. كان هناك أشخاص آخرون يسجلون أيضاً، ولكن ليس في أذهانهم، بل في كراسات بالية، يكتبون عليها الأرقام الرابحة ليقدِّروا بعد ذلك عدد المرات التي ربحت، لعلهم يكتشفون تلك الدورات التي تخلقها عجلة الحظ الحبلى بالمفاجآت. ولاحظ كلاوديو أن الذين يسجِّلون كلهم رجال. فالنساء لا يسجلن شيئاً، يلعبن فقط، ويُراهنَّ بمبالغ كبيرة.

ما بين طاولتين، وفي نقطة متساوية البعد، كان يقف شخص يسجِّل أيضاً، كبير في السن ببدلة ربما كانت في أيام عزِّها بدلة حفلات رسمية، ولكنها الآن تلمع عند منطقة الكوعين والركبتين لكثرة استعمالها، ثم إن أحد جيوب السترة ينتهي بِرتقٍ غير متقن.

كانت صلعة ذلك الرجل لامعة، تحفُّها على الجوانب بضع خصلات شائبة، وكانت عيناه الحسيرتان تتفحّصان – من خلال نظارة تُطالب منذ زمن بإعادة تقييم بصري – وتتصفّحان دفتراً صغيراً بأوراق ذات مربعات متصلة، وغلاف رمادي كان أبيض في يوم من الأيام. لم يكن يُقَيِّد نتائج الطاولتين فحسب، بل أيضاً نتائج عدة طاولات أخرى. وعندما، لا يتمكن من الوصول في الوقت المناسب، بسبب عرجه، لمعرفة مصير الكرة العاجية أو لسماع نداء مدير القمار، كان يسأل أحد اللاعبين، الذين غالباً ما كانوا يعاملونه بلطف، ودون كلفة.

وأخيراً قرَّر كلاوديو المراهنة. كان آخر رقم رابح هو 5. قرَّر وضع ثقته في المصادفة واستبعاد كل إشاعة حول قابلية تكرُّر الأرقام. أول مراهنة له (الأولى في حياته) وجَّهها بحذر إلى العشرة الثانية. أسود 15. نقل الفيشات متفائلاً إلى الصف الأخير. أحمر 34. وضع بضع فيشات بين الرقمين 8 و11. أسود 8. كان عمُّه على حق. عندما أخبره بنيَّته، شجَّعه إيدموندو قائلاً: «حسن جداً. إذا كنت ستلعب مرة واحدة فقط، فإنك سترب بالتأكيد. المصادفة دائماً تسمح للمبتدئ بأن يربح، لكي يستسيغ اللعب، فيسهل بعد ذلك جرُّه إلى خسارة كل شيء لديه. ولهذا كن حذراً». جمع الفيشات الرَّابحة وكان يتأهب لوضعها في الرقم 11، مراهناً لأول مرة بالمبلغ

المخصَّص للَّعِب وبالأرباح أيضاً، عندما سمع صوتاً وراءه يقول: «أهلاً كلاوديو. يبدو أن الحظ يحالفك». وعندما استدار ليرى من هو الشخص المضايق، سمع صوت مدير اللعبة يقول: «توقَّف قبول المراهنات» وكرَّر فتى من الجهة الأخرى للطاولة ساخراً نفس الجملة بالفرنسية Rien ne vas plus، مستحقّاً النظرة الشزراء التي وجَّهها له الموظَّف. ولاحظ كلاوديو عندئذ أن الفيشات ما تزال في يده. فقال الصوت: أسود 11. كان ما يزال يلعن في صمت عندما ميَّز ذلك الشخص. للوهلة الأولى، لم يتعرف عليه، لكن حركة من فمه وبعض اللمعان في عينيه كشفا له أن ذلك الشخص الجسيم هو ابن خالته فرناندو، الذي لم يكن قد رآه منذ الأيام الغابرة لِكابورو. كان كأنه منتفخ، وقد أصبح أنفه كبيراً داكن اللون، وحاجباه عبارة عن شعيرات متفرِّقة، وكانت في وجهه لحية ثلاثة أيام أو أربعة.

قرر كلاوديو مغادرة الطاولة (بالنهاية، كان في طريقه إلى الربح)، وهو متأكد أن ابن خالته حجر عثرة في طريق حظه السعيد. لم يقضِ سوى ساعة في الكازينو وها هو التطير ينتابه. اتفقا على تناول كأسٍ، احتفاء باللقاء. وحينها وهما يحملان كأس الويسكي، أحسَّا بارتياح، كما لو كانا بأحد مقاهي كابورو إيي دراغونيس.

وبعد الأسئلة المتعارف عليها (كم مضى من الوقت دون أن نرى بعضنا؟ هل تتذكر ملعب ليتو؟ أماتزال في مونتيفيديو أم رجعت

إلى ميلو؟ تزوجت؟ وأنت؟) سأله كلاوديو إذا ما كان ما يزال حَكما لكرة القدم. «أنت مجنون! من قال لك هذا؟ دانييل؟ هو يقول هذا ليشوّه سُمعتي. لم أفعل ذلك إلا في مناسبتين، خلال البطولة الجامعية». «يا صاحبي، مهنة التحكيم ليست حقيرة». «أعرف، أعرف، ولكن دانييل يقول ذلك ليسيء إلي. هل تعلم أننا متخاصمان. لا نكلِّم بعضنا منذ سنوات. شيء لا يصدَّق بين أخوين، أليس كذلك؟»

سأله إذا ما كان يعرف مكان وجود دانييل. «أظن أنه الآن في كندا. دانييل يقضي حياته مسافراً. ألم يرسل لك صور المدن التي يزورها؟ هو يرسل الصور إلى جميع معارفه، إلا أنا، طبعاً». «ولكن أنت أيضاً تسافر». «نعم، سافرت. وفي النهاية كنت أملُّ «مِثل محارة»، كما يقال[9]. مثل محارة أصابها الملل، تفهمني؟ لأنني أظن أن هناك محارات تتسلّى مثل الشمبانزي. مثل شمبانزي مستمتع، طبعاً. هل شاهدت مرة، في بيجا دولوريس، كيف يتزاوج الشمبانزي؟ إنه يستمتع كثيراً. خلاصة القول، لقد أصابني الملل. مع أنني قمت بزياراتي لأوروبا قبل الحرب، هه. ولكن نساء روبينس المكتنزات، وشخصيات إل «غريكو» النحيفات، والجواري والمِسَلاّت وبُرج

(9) مثل إسباني شهير يفيد الملل الشديد، كما يُفترَض أن تملَّ المحارة وهي محبوسة داخل الصَّدفة.

إيفيل وبيزا، كل هذا جعلني أصاب بالتشنج. أنا لا أصلح لكلِّ هذا الحجم من الثقافة. إنها تسبب لي غازات. أنا من جيل المتَّة والكونياك والبفتيك». وظل فرناندو لحظات ينظر إلى لا شيء. ثم قال خافضاً صوته: «أتدري لماذا تخاصمنا أنا ودانييل؟ كنا لا نفترق. ارتكبنا معاً شيطناتٍ لا تحصى. ولكن كما كان يقول أستاذ اللغة الفرنسية العجوز: cherchélafam، ابحثوا عن المرأة. كانت هناك فتاة، وعندما نكون معاً، كانت تمرّ وهي تهّز خصرها: وطبعاً وقعنا في حبها معاً. إنه خطأ فادح، كما قال أحدهم. وكان كل واحد منا على حدة يظن أنه هو المفضل لديها. وبدأنا أنا ودانييل نكره بعضنا. وكلما كانت تمرُّ، محدثة أزمة مرور، كانت تزداد كراهيتنا لبعضنا. إلى أن حدث، ذات مساء من شهر فبراير، بالضبط عندما يسود ذلك الجو الحار الذي يثيرنا جميعاً، أن رأينا الفتاة تمرُّ، هازة كعادتها ذلك الخصر، ولكن هذه المرة بصحبة غبي، ميزتُه الوحيدة هي أنه كان يملك سيارة رونو صغيرة جداً، لا بد أن الملعونَيْنِ قد ذاقا عذاب قابيل، للتمكن من ممارسة الجنس داخلها (وإن كان قاتل هابيل لم يملك سيارة قط). أتذكر أننا أنا ودانييل، أمام بوادر الخيانة المزدوجة تلك، نظرنا إلى بعضنا البعض، ذاهلين. ولكن ذلك الاكتشاف جاء متأخراً: لم يَعُد بوسعنا نسيان الكراهية الموجودة بيننا. وما زلنا كذلك إلى اليوم». وبما أن فرناندو توقف في تلك اللحظة لاسترجاع

أنفاسه، فإن كلاوديو استغل الفرصة ليسأله عن عمله. «أنا الآن صحافي وأحب هذه المهنة، عرفت؟ أتفرغ للأخبار العامة، ولكن ما يثير حماسي حقا هو الأحداث الدموية. والمدير يعرف هذا، لذلك كلما كان هناك حادث من هذا النوع يرسلني إلى المكان عينه، وأنا أقوم بالمهمة شاكراً. يجب أن ترى أوصافي المذهلة للمغدور، وإن كنت أفضِّل أن تكون مغدورة، خاصة إذا ما وجدوها عارية. كما بوسعك أن تتوقع، فأنا لا أكتب بهذه العبارات، بل أعبِّر عن ذلك بشكل جد لائق: «وكانت الضحية الشابة مجرَّدة تماماً من ثيابها». مديري يقول بأن أسلوبي في الكتابة هو الأمثل لوصف الجرائم الدموية، وأنا، بكل تواضع، أظن أنه على حق». وفكَّر كلاوديو أن أسلوب فرناندو الخاص ذاك ما هو إلا صورة كاريكاتورية للكلام الذي كان يستعمله دانييل هنالك في كابورو، عندما كان يقرأ روايات سير آرثر كونان دويل.

نظر فرناندو فجأة إلى ساعته، وقال أنه تأخر وأن عليه أن يعود. فسأله كلاوديو: «تعود دون أن تلعب؟» «لا، أنا لعبت. ومؤخراً، لا يحالفني الحظ كثيراً. اليوم خسرت نصف راتبي». «هل تأخذ علاوة لتغطيتك للأحداث الدامية؟» «لا، للأسف. فقط راتبي. فأنا أتقاضى الأجر نفسه، سواء كتبت عن جريمة عاطفية مزدوجة أو عن مؤتمر حول داء الشَّعرينات. ويجب أن أذهب بسرعة، لأنه، علي أن

أعيد تركيب أحداث «جريمة الحلّاقة». ها هي بطاقتي، لتتصل بي متى تشاء، وتحكي لي كيف تسير أمورك، فأنت اليوم جعلتني أتكلم كببغاء. أما أنت فقد كنت أكثر صمتاً من حرف H»[10].

بعد تخلّصِه من فرناندو، اقترب كلاوديو من البار وسأل النادل إن كان لديه قهوة على الطريقة التركية، فردَّ عليه بالإيجاب. عندما أحضروا له تلك القهوة ترشَّفها شيئاً فشيئاً. لم يكن قد تذوَّقها من قبل، لكنه تذكَّر أن رئيسه في الوكالة كان يتناول فنجاناً عند منتصف الصباح. في الواقع، كانت مقزِّزة، ولكنه تجرَّع بمجهود بطولي ذلك المشروب المقرف، فقط لكي لا يهزأ منه النادل، الذي بدا معجباً به أيّما إعجاب، عندما طلب منه ذلك المشروب الذي لا تطلبه إلا النخبة. عندما رأى النادل أنه قد انتهى من فنجانه، اقترب منه مبتسماً، وسأله إذا ما كان يجيد قراءة بقايا القهوة. «القهوة التركية هي الأفضل لقراءة الطالع عن طريق البقايا، رغم أن اليونانيين يؤكدون أن قهوتهم هي المثلى لأنها سميكة وحبوبها أكبر». فقال كلاوديو: «اقرأه إذا شئت». وقلب الرجل الفنجان، وبدا مذهولاً بما يراه. وقال: «هناك شجرة وكذلك امرأة». فشكره كلاوديو وهو يحس بالنفور، لكنه مع ذلك، ترك له مكافأة جيدة، مع ثمن القهوة.

---

(10) حرف H باللغة الإسبانية يُكتَب ولا يُنطَق، لذلك فهو حرف صامت.

وبعد أن أصبح سيِّد وقته مرة أخرى، اقترب من نفس الطاولة التي كان قد راهن فيها. وكما فعل في المرة السابقة، بدأ مراهناً على العشرة الثانية، ولكن هذه المرة، ربحت العشرة الثالثة. ثم وضع فيشات بين الرقمين 28 و31، ولكن الرابح كان هو الرقم 27. وبينما هو يفكِّر في شراء فيشات أخرى (الجزء الثاني الذي كان قد رسمه في خطته)، اقترب منه ذلك الرجل المتمرِّس الذي كان قد رآه من قبل، ببدلته الرسمية المهلهلة، ثم لمس ذراعه وسأله: «هل تريد نصيحة خبير؟» ظل كلاوديو متردداً للحظة، لم يكن يريد التدخل في مشاريع ناس آخرين، ثم إنه كان يخاف أن يطلب منه الشخص نقوداً أو شيئاً من هذا القبيل. «لا أطلب شيئاً. هي نصيحة بلا مقابل». ظل كلاوديو صامتاً. «راهِن على الرقمين 3 و10».

وأحس كأن ذينك الرقمين قد سددا ضربة إلى صدره. كأن جميع ساعاته الإيروتيكية بدأت تدقُّ في آن واحد. استطاع أن يتمتم بأنه يفضِّل الأزواج السُّود. «افعل ما تشاء، كلاوديو. أنت سيِّد حظك. ثم إنني يجب أن أنصرف. ولكن لا تنس الرقمين: 3 و10. وستشكرني على النصيحة في يوم من الأيام». «كيف عرفت اسمي؟ وما اسمك أنت؟» «لِنَقُل أنني من زبناء مقهى سبورتمان، ولكن هذا ليس هو المهم». لم يمدَّ يده مصافحاً. فقط، حيّاه بانحناءة من رأسه، وابتعد وهو يعرج.

وظل كلاوديو حائراً جداً واضطرَّ إلى الجلوس على إحدى الأرائك الجانبية. وسمع نفسه فجأة يقول بصوت عال: «ولِمَ لا؟» توجَّه إلى الصندوق واشترى فيشات أخرى ببقيَّة النقود واقترب من الطاولة نفسها. وضع بضع فيشات على الرقم 3 وبضع فيشات أخرى على الرقم 10. أحمر 3. فنقل أرباحه كلها إلى الرقم 10. أسود 10. ترك كل شيء على ذاك الرقم. فكان الـ «10» هو الرابح. حينئذ نقل جميع الأرباح إلى الرقم 3. أحمر 3. جمع كل الفيشات وابتعد عن الطاولة. ولكنه تمكن من سماع صوت مدير اللعب. ربحت الأرقام 4، 0، 36، 18، 27، 9، 31. ولم يسمع ذكر الرقمين 3 و10.

اقترب من جديد إلى طاولة بطولاته وراهن بمقدار كبير على الرقم 10. أسود 10. سُمعت غمغمة بين اللاعبين. ترك عند الرقم نفسه المبلغ الذي راهن به مع الأرباح. وربح الرقم 10 من جديد. بعض اللاعبين كفوا عن المراهنة. فقط لكي يروا كيف كان يربح. كان الصوت يقول أرقاماً أخرى عندما يكفُّ هو عن المراهنة. وعندما يراهن على الرقمين 3 و10 يربح.

انتبه إلى أنه قد حقَّق هدفه وزيادة. وكبادرة أخيرة، تكاد تكون وداعاً، وهو يعلم أن دورته قد بلغت نهايتها، راهن على الرقمين 3 و10 في وقت واحد. ثم سمع الصوت يصيح بالرقم 17. لقد ترك هدية سخية، غيَّر طناً من الفيشات في الصندوق، ووزَّع الأوراق

المالية التي قبضها على جميع جيوبه الكثيرة، خرج بدون استعجال، صعد إلى أول تاكسي (اليوم، بوسعه أن يسمح لنفسه بهذا الترف) وأعطى السائق عنوان ماريانا.

كل هذه النقود

عندما وصل كلاوديو وجد ماريانا في منتهى السرور، لأنهما، هي وأوفيليا، كانتا قد نجحتا في امتحان كان قد تحوَّل إلى كابوس بالنسبة إليهما. كانت الفتاتان تتعانقان، وتعانقان كلاوديو. وأحضرت أوفيليا من المطبخ زجاجة نبيذ أحمر وصينية سندويتشات. وقالت له ماريانا: «كنا ننتظرك». «ولحسن الحظ، أنك جئت الآن، لأن أوفيليا ستذهب بعد قليل إلى مالدونادو لتفرح والديها بالخبر السار». واستطردت قائلة: «والديها وخطيبها. أتدري أن لديها خطيب؟» تبادل الجميع عناقات وتهاني جديدة. وقال كلاوديو: «احكي، احكي». وكانت رواية أوفيليا قصيرة للغاية: «هو نصف بدوي، ولكنه خطيب على كل حال». فقالت ماريانا: «لا تنتقصي من شأنه». وقالت لكلاوديو موضِّحة: «الخطيب ينتمي إلى أسرة ملاَّكين. ما رأيك؟» وأضافت أوفيليا إيضاحاً آخر: «نعم، ولكنه منشقّ». فسأل كلاوديو وهو يضحك ضحكاً شديداً: «كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لم أكن أعرف أن هناك ملاَّكين قد اختاروا طريق العصيان. لا بد أنهم أسسوا نقابة». «هذا هو ما يحدث. فهو

يقضي كل وقته مدافعاً عن مصالح العمال، الذين يملأهم الخوف من العواقب الوخيمة التي قد تترتب عن تلك المطالبات».

وتذكرت ماريانا المهمة التي كُلّف كلاوديو بالقيام بها، فسألته عن النتيجة. «جيدة نسبياً». قالت: «لحسن الحظ» ولكن أوفيليا قاطعتهما قائلة: «مع السلامة، مع السلامة، نلتقي يوم الإثنين». عندما بقيا وحدهما، سألت ماريانا من جديد: «ماذا تعني بجيدة نسبياً؟» عندئذٍ أخذ كلاوديو يُفرِغ كل شيء على المائدة: المحفظة، الحقيبة، الجيوب المتعددة. كان حجم كل تلك الأوراق المالية هائلاً.

أحسّت ماريانا بنفَسها ينقطع. ولم تستطع سوى أن تقول (بصوت غريب، أكثر حدة من صوتها العادي): «من أين سرقت هذا؟ كلاوديو ألبيرتو ديونيسيو فيرمين نيبوموسينو أومبيرتو بلا حرف H، من أين لك هذا، من أين سرقته؟ أنا حذرتك وقلت لك أنني قديمة، لا تنس هذا! لا يثيرني المجرمون! ولا حتى روبين هود». كان كلاوديو يضحك بشدة، بينما بدأ الشحوب يعلو وجه ماريانا. في النهاية، أشفق عليها من أن يصيبها مكروه فأمسكها من ذراعيها وهزَّها قليلاً وقال لها (وهو يكاد يصيح): «لا تكوني غبية. ألا ترين أنني قد ربحته في الروليت؟»

حينئذ تراخت المسكينة تماماً، وبالكاد، تمكَّنت من أن تسأل

بصوت خافت: «كل هذه النقود؟» ثم غابت عن وعيها. فزع كلاوديو، صفعها صفعتين (بكل رفق) وهرع للبحث عن صندوق الإسعافات الأولية، جعلها تشم النُشادر. وعندما فتحت عينيها أخيراً أجابها مبتسماً: «نعم، كل هذه النقود».

توجهت ماريانا إلى الحمام وبللت وجهها بالماء. وعندما عادت إلى حيث كان كلاوديو، كان ذلك الذعر قد تحول إلى فرح. قالت: «ياله من يوم! أولاً، الامتحان والآن هذا ال.... يا للهول! « كانت تنظر إلى النقود، غير مصدِّقة. أخيراً سألت: «كم عددها؟» فأجاب كلاوديو: «لا أدري. لم أجد الوقت بعد لكي أحسبها. ولكني أظن أنها لا تكفينا للانتقال إلى شقة أخرى فقط، بل كذلك لدفعة أولى جيدة، لشراء شقة. والبقية ندفعها على أقساط». فقالت ماريانا: «أراك تتكلم مثل أصحاب العقارات».

وحينئذ ندَّت عنها تنهدة هائلة، نابعة من صميم أعماقها. ثم نظرت إلى كلاوديو. «يظهر أننا سنتزوج. وأن سونيا أخيراً ستنام مطمئنة». «انسي سونيا. نتزوج فقط إذا أردت أنتِ أن نتزوج». فقالت: «انتظر، سأتدرب على الإجابة على سؤال القاضي: نعم، أريد». رتبا الأوراق المالية وجعلاها في أظرفة جاءت بها ماريانا، ثم وضعا كل شيء على رفٍّ بسيط من الخزانة، كما لو كان صندوق أمانات. قال كلاوديو: «وأنا قادم في التاكسي من فندق باركي أوطيل،

فكرت أنه من الأفضل أن نضع كل هذا في حسابٍ باسمك، غداً. وأقول باسمك لأن الوكالة، كما تعلمين، ترسلني بعد أيام إلى كيتو، وليست لدي أدنى فكرة عن المدة التي سأقضيها هناك. حاولي أنتِ في غيابي أن تزوري بعض الشقق، وإذا وجدتِ واحدة تناسبنا وتناسب إمكانياتنا الجديدة، اتركي عربونا ونُنهي العملية بعد عودتي. ما رأيك؟» «كنتُ قد نسيت رحلتك، مشكلة!».

كانا في غاية الذهول والقلق وحتى الخوف. في تلك الليلة، لم يتناولا العشاء ولم يمارسا الحب. فقط ناما متعانقين، كأنهما مخلوقان ضعيفان يُثقِل كاهلهما حُسن الحظ ذاك.

ذاك القليل من التوازن

في 9 أغسطس سنة 1945، أي في اليوم الذي قرَّر الحظ (متجسِّداً في ذلك البطريرك المُفلِس الذي نصحني في الكازينو) أن يحمينا ويمنحنا، دون مقابل، فرصة الحصول على مسكن لنا، بالضبط في ذلك اليوم، ألقى الأمريكيون على ناغازاكي قنبلتهم الثانية الهائلة «أ»، التي انتزعت من عشرات، وربما مئات آلاف الكائنات البشرية، حياتهم ومساكنهم. هذا لم نعرفه أنا وماريانا إلاَّ في اليوم التالي. لا أدري لماذا تركت قنبلة ناغازاكي في نفسي تأثيراً أعمق من الذي تركته القنبلة التي أُلقِيت على هيروشيما. ربما لأنها لم تكن فظاعة فحسب، بل استمراراً للفظاعة. في نشرة الأخبار، قالوا إن قوة القنبلة تعادل 12,5 كيلوطن، مضيفين أن كيلوطناً واحداً يساوي ألف طن من متفجرات تي.إن.تي. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن قدرة التدمير الخارقة تلك، ولكنها لا شك قدرة هائلة، إذا ما صدقنا مبالغات المعلِّقين الملتهبة.

وبما أن الذين ألقوا القنبلة لم يكونوا ألمانيين ولا فرنسيين ولا روسيين، بل أمريكيين، فإن المذيعين قضوا يومهم محتفلين بذلك

الحدث، مشيدين بالخطوات الجبارة التي حققتها القوات الديمقراطية في ميدان التقنيات الحربية. ثم إن الضحايا الذين سقطوا بمئات الآلاف لم يكونوا من الجنس الأبيض بل من الأصفر، ولهذا لا يجب أن يشغل الأمر بالنا كثيراً.

كان ذلك بالنسبة لي فظاعة حقيقية. لم أستطع أن أستوعب كيف يتأرجح الناس بهذا الاستهتار، بين الاضطراب والابتهاج. كانوا يتنبأون بنهاية الحرب بعد القنبلتين ويقولونها بابتهاج، وكأننا نحن الذين كنا نعاني يومياً وحتى الأمس من الغارات الجوية. أنا لم أكن أستلطف اليابانيين بشكل خاص، ولكن موت آلاف المدنيين حَرقاً بدا لي جريمة في منتهى الوحشية. ما أسرع ما تعلَّم الأمريكيون من النازيين نظام الأفران المحرقة. من أوشبيتز إلى هيروشيما، دون تدرُّج.

تركتُ ماريانا مع همومها ودون حتى أن أمُرَّ بشارع أريوسطو، توجهتُ رأساً إلى بيت عمي إيدمونو. فهو وحده يستطيع أن يفسِّر لي كل هذا الجنون. وصلتُ إلى بيته، وأنا أكاد أركض ودفعت الباب الذي لا يغلقه بالمفتاح إلا في الليل. وجدته في الفناء، يتناول المتة، مستغلاً شمس الحادية عشرة، من يوم أغسطس دافئٍ على غير المعتاد. فكرت في قراري (وندمت بسرعة على تفاهة تفكيري) أن تلك القنبلة بلهيبها الهائل، هناك بعيداً، قد أدفأت شتاءنا هنا.

قال لي «اجلس» وأشار إلى كرسي من الخيزران. كان يعرف لماذا أتيت. قال: «ليس لدي تفسير. من يستطيع أن يفسِّر وحشية كهذه؟ التفسير الوحيد هو أن الإنسان بوسعه أن يتصرف بهمجية لا حدود لها مع أخيه. بوسعه أن يكون قاسياً دون أن يعرف الآخر، دون أن يرى وجهه ولا حتى أن ينظر في عينيه. يمكن أن يكون قاسياً بقرار مستقل حرّ. كأن ذلك الآخر ليس مرآة. فعندما يدمر المرآة، يدمر نفسه أيضاً. قرار إلقاء القنبلتين قرار قاتل، ولكنه أيضاً قرار انتحاري. ما زال الوقت مبكراً. لم تصلنا حتى الآن سوى تلك الصورة البشعة والمذهلة لذلك الفطر الذري. ولكن، يوماً ما، ستصلنا تلك الصور الإنسانية واللاإنسانية لهذا الحدث اللامعقول. ربما كان الرئيس ترومان رجلاً قاسياً، عنيداً، لا يرحم، ولكني لن أتردد في الجزم بأنه لن يستطيع أن ينام مطمئناً، إلى أن يموت. وحتى الطيارون المكلفون بمهمام كهذه، هل يستطيعون طويلاً مقاومة إغراء الانتحار المتَّقد؟»

أخذ الرشفة الأخيرة من المتة، ثم تركها على مقعد، بجانب زجاجة التِّرمُوس. سألت: «ونحن؟» فابتسم إيدموندو، بإحباط: «لا شيء. لا نستطيع أن نفعل شيئاً سوى المحافظة على سلامة عقولنا. ولعل في ذلك الكفاية».

عندئذ أخبرته بنتيجة مغامرتي في فندق باركي أوطيل. ابتهجت عيناه. «أخيراً سمعت خبراً ساراً!» قلت له أننا أنا وماريانا نفكِّر في

شراء شقة بتلك النقود ربما نتزوج، ولكن الأخبار الأخيرة أزعجتني إلى درجة أنني لم أعد أعرف ماذا أفعل. «قبل ثلاثة أيام، حدث ما حدث في هيروشيما، ولا أدري لماذا (ربما لأنني حينئذ كنت صفر اليدين) لم أتأثر كما تأثرتُ لِما حدث الآن. ألا يمكن أن أخصّص هذا المال لهدف أكثر إنسانية، أكثر تضامناً من حلٍّ مشكلة شخصية جداً، وبالتالي أنانية جداً، مثل مشكلة المسكن، وليس مسكن أي كان، بل مسكني أنا؟ لا أدري هل أسمي هذا تأنيب ضمير، فَ «ترومان» لم يستشرني عندما أمر بإلقاء القنبلتين، ولكن الحقيقة هي أنني لست راضياً عن نفسي. ومن جهة أخرى، لا أريد الإساءة إلى ماريانا. هي مُعضِلة حقاً». «اسمع، كلاوديو، الإحساس بتأنيب الضمير شيء، وأن تخلق أنت هذا التأنيب، شيء آخر. لا بأس أن يكون لديك هذا القلق، ولكن ما العمل؟ هل تنوي استعمال هذا المال لإنشاء وحدة فدائية تقوم بإعدام ترومان؟ أم تريد بناء مستشفى لضحايا هيروشيما وناغازاكي؟ بما أنك لم تكن تملك شيئاً، وتظن أن هذا المال الذي وصل إلى يدك فجأة هو ثروة. ولكن لاحِظ أنه لا يكفي وحده حتى لكي تشتري مسكناً، وإن كان يساعد على ذلك مساعدة لا يُستهان بها، طبعاً. وأن تفكر في اقتناء بيتك لا يدل على أنك أناني، فهذا إحساس طبيعي جداً، إحساس بشري جداً. هذا البيت اشتريناه أنا وأديلا قبل زمن طويل، هو بيت قديم ولكنه

جميل، بفناء ودالية، ولا أعتبر نفسي لهذا رجلاً ذا قوة أو ثروة. أدَّينا أقساط القرض للبنك شهراً بعد شهر. هذه خاصية إيجابية في هذا البلد، على الأقل، إلى الآن. عدد غير قليل من المستخدمين البسطاء والعمال يملكون مسكنا أدَّوا ثمنه متراً متراً، يومية بعد يومية. كنا نريد أن ننعم بالعيش فيها معاً، ولكن الآن، وقد أدَّينا الدَّين كله، لم تعد أديلا هنا. ليس المسكن ملكاً عقارياً فقط، بل هو أيضاً شكل من أشكال الدعم الروحي. وسترى، عندما تشتري بيتك، أن العودة إليه كل ليلة، يمنحك قليلاً من الثقة، لا ثقة كثيرة، بل قليلة، في هذا العالم الذي لم يعد أهلاً للثقة».

«وناغازاكي؟» «آه، ناغازاكي. أتذكر أنني عندما كنت في مثل سنِّك تقريباً، ربما أصغر منك بقليل، اغتال الطالب برنسيب في ساراييفو، الأرشيدوق فرانسيسكو فرناندو وزوجته، متسبباً بذلك، وبطلقتي رصاص فقط، في اندلاع الحرب العالمية الأولى. ذلك الحدث جعلني أحس أنني فارغ، غائب، بعيد عن العالم، عن التاريخ، عن المستقبل. وتولَّد لدي انطباع بأن القرارات الخطيرة لا بد سيتخذها آخرون، وبأنني سأبقى دائماً على الهامش، وأن فرصتي الوحيدة (لا تنس أني كنت وقتئذ عدَّاءً) هي أن أركض في ميدان السِّباق الذي قد خصَّصه لي آخرون. وبعد ذلك، تمرُّ الأعوام ويتعلم الإنسان أن الأمور ليست جامدة إلى هذه الدرجة، وأن هناك

دائماً ثمة جزء من القرار يكون هو المسؤول عنه وأنه لا يمكن أن يتخلص بسهولة من هذا الالتزام. وعندما تتوصَّل أخيراً إلى استنتاج أن العالم كبير وأن عالمك أنت صغير جداً، حينئذ تبدأ في استعادة التوازن، ذاك القليل من التوازن الذي كان من نصيبنا في القسمة، والذي يجب ألاَّ نبدِّده».

ناغازاكي كما أراها

قبل السفر إلى كيتو، قرّرت أن أرسم ناغازاكي كما أراها. كان الخبر قد أثَّر فيّ تأثيراً بليغاً لم أشأ أن أتركه يذوب في النسيان. ومن جهة أخرى، ومع مرور الأيام، بدأت تجتاحنا تفاصيل تلك الهمجية، تطوّقنا. كأن أحدهم كان يقول لنا، أنتم أيضاً بوسعكم أن تقعوا ضحايا، بل بالأحرى، لقد وقعتم، القنابل التي تحرقكم، هي فقط من نوع آخر.

تلك الممارسة الجماعية والمبرمجة للكراهية التي حدثت في اليوم 6 و9 من أغسطس، جعلتني أختنق. غذيت في نفسي رفضاً شديداً للكراهية، حتى أوشكت أن أرتكب خطيئة موازية: أن أكره الكراهية. عندما كنت أستمع إلى مذيعي الراديو أو أقرأ ما يكتبه الصحافيون الذين يشيدون بتلك المجازر «لأنها أنقذت ملايين آخرين من الموت»، كان يخيّل إلي أن مذهباً جديداً قد نشأ: مذهب النِّفاق العلمي – التقني.

ظللت أياما عديدة أضع رسوماً أوّلية، ولكنني لم أكن أجد الصور المناسبة، وجوهاً وأجساماً ليست مجرد نُسخٍ للوثائق الفوتوغرافية

التي تصلنا وتذهلنا كل يوم. وعندئذ قرّرت التعبير عن الفاجعة بصور مجرّدة، بالألوان فقط والخطوط والأضواء والظلال، دون حضورٍ ولا غيابٍ لكائنات بشرية، فقط كحالة نفسية مهولة، كأن النفس البشرية، وليس مدناً تعيسة، هي التي كانت ضحية لهذه الفاجعة. ولكن الفرشاة والمزاجة كانتا تسقطان من يدي من شدة عجزي، وكل لون من الألوان كان يبدو لي ساذجاً، خالياً من التعبير، ضعيفاً.

وذات مساء، أتى إليّ نوربيرتو في شاحنته الجديدة. كان فخوراً بها فأراد أن يُرِيَني إياها، وعرض عليّ أن يأخذني إلى حيث أشاء. ولم أكن في حالةٍ أرغب معها في القيام بأية جولة. حدَّثته عن ذلك الموضوع الذي بات هاجساً بالنسبة إليّ: ناغازاكي. فعلّق قائلاً: «آه، القنبلة الأخرى» لأنه يعتبر، كما يعتبر الجميع، أن هناك قنبلة رئيسة وهي التي ألقيت على هيروشيما. أما قنبلة ناغازاكي هي «الأخرى» فقط، التالية في النظام التفضيلي للأعواض.

حدثته أيضاً عن صعوباتي في العثور على تعبير فني ملائم لذلك البؤس. «هل قلتَ بؤس؟ لديّ حل لمشكلتك». وانطلقنا. عبرنا تقريباً كل المدينة، بينما أنا مستغرق في أفكاري. لذلك، لم أعرف جيداً أين كنا في تلك اللحظة. وأوقف نوربيرتو السيارة فجأة. كنّا أمام مزبلة ضخمة، هائلة. كانت الرائحة لا تطاق. أشخاص

بأسمال ممزقة، قذرة، نساء شعثاوات، أطفال ومراهقون بثياب رثة، يُقلِّبون بين القاذورات والنفايات والرماد، باحثين عن شيء، يعلم الله ما هو. عندما انتبهوا إلى وجودنا، رفعوا رؤوسهم لحظة ونظروا إلينا بلا تحامل، بلا كراهية. نظروا إلينا نظرات لا تحمل أي معنى. ثم سرعان ما عادوا إلى حثالتهم، نتنهم، قذارتهم، عملِهم. قال نوربيرتو: «هاهي ناغازاكي كلاوديو».

«فريتاتيني أي كواطرو سابوري»

قد يكون نوربيرتو على حق: تلك كانت ناغازاكِيَّ أنا، ناغازيكيَّ المتواضعة، التافهة، البدائية. ولكنني لم أستطع هذه المرة أيضاً أن أنقل ذلك إلى لوحتي. فرؤيتي للفظاعة لم تكن بعد ناضجة، حتى أنقلها إلى لوحة. كان تفاعلي مع الموضوع سطحياً (لا جوهرياً). تقبُّلي لِ «بلاط المعجزات» ذاك الموجود بيننا (تذكرتُ أنني بحثت عنه قبل سنوات، لأقارنه بذلك الذي يصفه فيكتور هيغو في «أحدب نوتردام»، ولم أجده) جعلني مع ذلك أحس بأنني غبي مغرور. أدركت الآن أنني، برغم قوة احتجاجي أمام عمي إيدموندو، كان هناك نوع من المبالغة، تفخيم كلام، كأنني، لا إرادياً، أردتُ تضخيم ذلك الجزع، المتوقَّع أمام كارثة بعيدة، لأحوِّله إلى مأساة شخصية.

وفي خضمِّ ذلك الصراع النفسي، بدا اقتراب موعد رحلتي مناسباً. كان سينظِّم بِكيتو مؤتمر دراسي دولي، حول التخطيط البياني والإشهاري، وقرر الرؤساء في الوكالة أنني الشخص الأنسب لامتصاص الأفكار الجديدة التي ستطرح هناك حيث قالوا لي: «أنت شاب، لديك تجربة كفنان تشكيلي وهي تجربة مثمرة، ولكن في

بدايتها، ومعرفة ناس جدد سيكون جيداً بالنسبة إليك». الغريب في هؤلاء المسؤولين هو أنهم أسخياء عندما يتعلق الأمر بفتح فرص للمستخدمين، ولكنهم بخلاء في الأمور الصغيرة العملية، ولذلك، فَهُم لم يشتروا التذكرة من شركة تنظِّم رحلات منتظمة، بل من شركة، شبه سرِّية تنظِّم من حين لآخر رحلات خاصة، بين بوينوس أيريس وكيتو.

وبما أن الرحلة كانت مقرَّرة ليوم الإثنين، فقد ذهبت إلى بوينوس أيريس يوم الجمعة، لأقضي يومين مع جدَّي الإيطاليين. لم تذهب ماريانا إلى مطار كرَّاسكو لتوديعي. قالت أن الوداعات والأعراس والاستعراضات العسكرية تثير بكاءها (كنت أستطيع أن أفهم الأمر فيما يتعلق بالأعراس والوداعات، ولكن لم أفهم كيف يمكن أن يبكي أحد عند مشاهدته لاستعراض عسكري). ولذلك لم يحضر معي إلى المطار لتوديعي سوى أبي وسونيا وإيلينيتا وخوسيه وحتى جوليسكا، التي كان يغمرها حب استطلاع شبه طفولي لرؤية إقلاع الطائرات.

لم يكن وضعي يسمح لي بالسخرية من جوليسكا، فأنا أيضاً لم أكن قد سافرت من قبل في طائرة، ولا حتى خرجت من البلد (جوليسكا على الأقل كانت تعرف كرنا غورا). ولهذا فإن رحلتي إلى كيتو تحوَّلت إلى نسختي الشخصية وغير القابلة

للنَّقل، لأحد كتب جول فيرن، الذي كنت قد قرأته في طفولتي: «خمسة أسابيع في منطاد».

عندما بدأت أخطو مع باقي المسافرين، نحو طائرة «بلُونا»، وصلني من الشرفة، صوت يوغوسلافيتنا الذي يمكن تمييزه من بين آلاف الأصوات: «رحلة سعيدة!» لم يبق لدي أدنى شك حول التحسُّن الهائل الذي طرأ على لغتها الثانية.

استقبلني الجد بينسينسو (في الحقيقة، بينسينسو كارلو ماريو أومبيرتو ليونيل جيوفاني)، ذلك الذي نجا من الغرق، لأنه وصل متأخراً إلى السفينة، والجدة روسانا، كأنني ابن ضال عاد إلى البيت. أكبر تكريم أقاماه من أجلي كان تقديمهما لي أفضل ما كانا يجيدان إعداده من ألوان الطعام الإيطالية: شوربة المينيستروني، كبِد بنكهة الميرمية، فريتاتيني أي كواطرو سابوري[11]، بيبيروني ألا كارمن[12]، كروستيني أرليكينو[13]، تاغلياتيلي ألا خينوفيسي[14]. لو كانت جوليسكا رأتني وأنا أتلذذ بتلك الألوان البعيدة كل البعد عن الألوان اليوغوسلافية لعانت أكبر خيبة في حياتها. الحقيقة أن كل ما أعدَّاه لي كان لذيذاً للغاية. وعَدتُ نفسي بأن أكون زاهداً في الأكل

(11) عجة بأربع نكهات.
(12) نوع من الفلفل الحارق.
(13) نوع من الخبز المحمص.
(14) نوع من المعكرونة.

والشرب بعد وصولي إلى الإكواتور، ولم أتوقف عن الأكل، أكلت، أكلت – كما قال الكاتب الكلاسيكي (من كان يا تُرى؟) – بلا عجلة ولكن بلا توقف.

بعد الأكل، اضطررت إلى بذل مجهود للإجابة على لائحة الأسئلة المتعبة للجدَّة روسانا، حول زوجة ابنها الجديدة (في العرس كانا قد تعرفا على سونيا، ولكن مجرد معرفة سطحية)، وكيف هي علاقتها بابنها سيرخيو، وعن الخطيب الباراغوائي لإيلينيتا، وعن وماريانا، وعن وإذا ما كنا سنتزوج ومتى (بطبيعة الحال، سيحضران زواجنا). سألا أيضاً عن ابنهما الآخر، عمي إيدموندو، ولكن ببعض الخيبة، لأنه لا يكتب إليهما. قالت الجدة: «إنه غريب الأطوار. لقد تغير كثيراً بعد موت أديلا». قال الجد في محاولة لإيجاد عذر له: «كان يحبها كثيراً، هذا هو السبب». لم يكن تصرفه معي غريباً، كان يتكلم كثيراً، ولكني لم أقل لهما ذلك لكي لا أجرحهما. تذكَّرت أنني سألت مرة إيدموندو عن علاقته بوالديه فقال لي: «أحبهما، طبعاً. أحببتهما دائماً ولكني لم أستطع يوماً أن أتواصل معهما. سيرخيو يفعل ذلك أحسن مني». الحقيقة هي أن الجدَّين رائعان، إذا اكتفينا بقضاء نهاية أسبوع واحدة فقط معهما، ولكن ما أصعب أن نعيش معهما دائماً. فالحب الذي يحسان به نحونا لا شك فيه، ولكنه متملِّك للغاية.

في يوم الأحد اتصلت تلفونياً بماريانا، وقبل أن تسمع هي صوتي، سمعتها تقول لي مسرورة: «نيبوموسينو!» يجب أن أعترف أن حدسها القوي أثَّر فيَّ تأثيراً بالغاً. «السرير يشتاق إليك، أنا أشتاق إليك، كلنا نشتاق إليك. البارحة زرت شققاً وأظن أنني وجدت واحدة أعجبتني. هي في متناول حظِّنا «الروليتي». أظن أنني سأترك عربوناً غداً. ففكرة زواجنا بدأت تعجبني. ثم إنني أستطيع أن أبحث عن عمل. لقد اتخذت القرار، لأني إذا انتظرت حتى أصير طبيبة بيطرية، عندما يحين وقت إجراء الامتحان الأخير، ستكون الأبقار والكلاب والخيول والناس قد انقرضوا من هذا البلد. آه، لدي أشياء كثيرة أريد أن أتكلم معك فيها. حذار من نساء كيتو، في عروقهن تجري دماء هندية وإسبانية، وهذا يعطي خليطاً مثيراً بشكل فظيع. ومن فضلك: لا تعلِّمهن رقصة التانغو، لأني أعرفك، هه؟»

لم تكن يوماً ثرثارة بهذا الشكل (لا أتذكرها هكذا). أحسست برغبة جنونية في أن أعانقها، أقبِّلها، في رؤيتها إلى جانبي. لماذا سافرتُ إلى كيتو؟ لقد كلَّفتني المكالمة مبلغاً كبيراً، لأنها عندما كفَّت عن الكلام، أخذت أنا بدوري أتكلم وأسمعتها سلسلة من الكلام الجميل المجامل، غريبة تماماً على رصانتي في الغزل، التي يُضرب بها المثل.

بقايا القهوة

لم يرافقه إلى المطار غير الجد بينسينسو، لأنه كان يوم الإثنين، فاضطرت الجدة روسانا إلى البقاء في دكان كباجيتو. لقد كان الجد يرى أن السفر على متن الباخرة أفضل، وخاصة – وهنا أطلق ضحكة– إذا ما وصل المرء متأخراً إلى الميناء، ووجد أن الباخرة، تلك التي ستغرق في عرض المحيط الأطلسي، قد أبحرت. فأجاب كلاوديو: «نعم، طبعاً، ولكن لا تنس أن السفر في باخرة من بوينوس أيريس إلى كيتو يكاد يكون مهمة مستحيلة».

لم يكن من السهل العثور على المكتب المكلَّف بركاب تلك الرحلة. سألا في مكتب «الاستعلامات»، ولكن هناك لم يكونوا يعرفون حتى اسم شركة «ألِف إيرلاين». أخيراً، ولما بدأت أعصاب كلاوديو تتوتر، رأيا مكتباً عليه لافتة من الكارتون، مكتوب عليها بخط رديء: «ألِف (خاص إلى كيتو)». لم يكن هناك سوى عدد قليل من الركاب، رغم أنه لم يكن قد بقي وقت طويل على إقلاع الطائرة، على أي حال، اقتربا من المكتب وأكَّدت لهما الموظَّفة أنه المكان الصحيح الذي يجب أن يحضر إليه أصحاب تلك الرحلة.

وأضافت المرأة قائلة: «ولكن الرحلة ستتأخر ساعة. على كل حال، يمكنك أن تترك الحقيبة». لم يكن ما يحمله كلاوديو ثقيلاً، لأنه كان يتوقع ألا يدوم المؤتمر الدراسي في كيتو أكثر من أسبوع.

لأن الطائرة كانت ستتأخر ساعة، فقد جلسا في مقهى وطلبا قهوتين مع بضعِ هلاليات. كان الجد بينسينسو منذهلاً لمشاركة كلاوديو في مؤتمر دراسي دولي. «ستعرف أشخاصاً مهمين جداً». ونصحه بأن يكوّن علاقات، لأنها بلا شك، ستفيده مستقبلاً. «في عالم اليوم، من لا يملك علاقات، لا يتقدم. انظر إلي أنا: ظللت حيث أنا بما أملك، الدكان الصغير الذي تعرفه، ولم أستطع أن أتقدم إلى الأمام، والسبب هو أنني لم أكن أملك، ولا أملك إلى الآن علاقات». وأضاف: Sono troppo bizzoso، أنا مزاجي للغاية، وليس بوسعي أن أقيم علاقات مفيدة».

لم تكن قد مضت حتى عشرون دقيقة، عندما أعلن صوتٌ عبر المكبِّر، عن انطلاق الرحلة الخاصة 9131 لشركة «ألِف إيرلاين»، وبعد ذلك بثلاثِ دقائق، أعلن من جديد أن ذلك آخر نداء للرِّحلة. هرعا نحو الباب رقم 7، وهناك وجدا نفس اللافتة الكارتونية التي كُتِب عليها اسم الشركة بخط رديء. لقد كان مجموع الركاب عشرة أو اثني عشر. فقال الجد: «ستكون رحلتك مريحة» وضمَّ كلاوديو إلى صدره.

كانت مقاعد الطائرة تبدو مريحة. وضع حقيبة يده في مكان الأمتعة وشد الحزام. وأقلعت الطائرة بهدوء. كان كلاويدو يشعر بالإرهاق، لعدة تراكمات. استعدادات السفر في مونتيفيديو، ليلته الأخيرة مع ماريانا، التوديع في مطار كارّاسكو، الأكل اللذيذ مع الجدين، أسئلة روسانا، الحديث مع ماريانا في التلفون، صعوبات العثور على مكتب شركة الطيران، كل ذلك تراكم عليه والآن وقد أصبح في الهواء، أحس بعينيه تغمضان. كانت ناغازاكي ترقد، وقد تحولّت إلى رماد، في ركن ما للماضي الغابر.

وعندما فتح عينيه أحس أن يداً تحطّ على ذراعه. فكّر أنه يعرف تلك اليد قبل أن ينظر إلى يساره. كانت يد ريتا طبعاً. قالت: «كلاويدو. مفاجأة كبرى أن أجدك في رحلتي». وانتبه إلى البدلة الرسمية للمضيفات. «أتتذكر أنني قلت لك تلك المرة في مقهى سبورتمان، أنني أعمل مضيفة في شركة طيران؟ هذه هي الشركة».

وظل كلاوديو صامتاً. نزلت يد ريتا حتى لمست يده، أمسكتها وقرّبتها إلى شفتيها وقبّلتها، كما كانت تفعل في الماضي. حينئذ قال هو: «الزمن تغير، ريتا. وأنا الآن إنسان آخر». فقالت: «أنت متأكد؟» وقامت يد ريتا بحركات أكثر حميميةً واستعجالًا. «نحن الآن نكاد نكون وحيدين، كلاوديو، الركاب الآخرون، وعددهم قليل، يوجدون في آخر الطائرة».

رفعت ريتا المتّكأ الذي يمثّل حدّاً ضئيلاً بين المقعدين، وألصقت جسمها بجسم كلاوديو، وباليد الأخرى أمسكت ذقنه وقربت وجهه وقبلته عند زاوية الشفتين. كانت تلك كلمة السر، ثم قبّلته قبلة طويلة على شفتيه.

وسمع حينئذ صوت الربان عبر الهاتف اللاسلكي: «معكم الربان إيخينيو ميندوسا. مرحباً بكم في الرحلة الخاصة 9131 لِـ«ألِف إيرلاين». نخبر السادة المسافرين أننا بعد ثلاث ساعات وعشر دقائق سننزل في مطار ميكتلان. وستقدَّم لكم وجبة خفيفة خلال هذه الرحلة». عندما سمع كلاوديو هذا الكلام، أفاق من نشوته، وأزال بحركة فجائية اليد المتجوِّلة لريتا، ثم أبعد «شفتيه القويتين عن تلك الشفتين الضعيفتين» وسأل بصوت عالٍ «ما اسم المطار الذي تكلَّم عنه؟». رتَّبت ريتا شعرها وابتسمت ابتسامة خفيفة قبل أن تجيب: «ميكتلان». «ألم نكن متوجِّهين إلى كيتو؟» «كنا، نعم. الآن نحن ذاهبون إلى ميكتلان».

أحس هو بالتوتر: «وأين يوجد هذا المكان؟ في أي بلد؟» وصارت يد ريتا الثانية التي تستريح الآن على ذراعه، باردة برودة لا تطاق: «سترى بنفسك، كلاوديو، سترى».

قال كلاوديو: «أيمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟» فردت قائلة: «نعم، تفضَّل. أنا لست مثل أبي الهول. أنا أجيب». «أنتِ كنتِ

تعرفين الداندي، أليس كذلك؟» «بلى، كنت أعرفه. هناك في حديقتك المشهورة، حديقة كابورُّو. سيِّد بمعنى الكلمة. ولكن حاله في النهاية كان قد تدهور كثيراً». وانتبه كلاوديو لأول مرة إلى أن حلقه قد نشف. قالت ريتا: «أي سؤال آخر؟». أغمض عينيه وظل السؤال يتردد في رأسه مثل أسطوانة معطوبة. كان ذلك السؤال ما يزال يرجُّ ثاقباً مُلحّاً: «أي سؤال آخر؟ أي سؤال آخر؟»، عندما أدرك بوعي غائم أنه نائم. ورغم أنه كان نائماً، نظر من النافذة وخُيِّل إليه أن الطائرة تطير بشكل لولبي، تدور وتدور فوق المكان نفسه، ولكن الأماكن نفسها كانت تبدو في كل مرة أبعد. وسمع وسط ضباب بنفسجي كثيف صوت ريتا في مقهى سبورتمان، وهي تقول له أنها ترى الموت كحلم يتكرر، ليس بشكل دائري، بل لولبي. «كلما مررتَ من جديد من نفس الحادث – قالت – تراه وقد ابتعد أكثر، وهذا يجعلك تفهمه بشكل أفضل». ولكن الطائرة وهو أيضاً كانا يمرّان بالأحداث نفسها، في كل مرة، ولا يفهمها بشكل أفضل. هناك، في الأسفل، كان يوجد الداندي، نصف مخفي وراء تلك السجقة الفضية، منطاد «الغراف زيبيلين»، وأبوه وهو يقول له الخبر السيئ في المطبخ، ووجه أمه داخل التابوت، والتينة الأخَوية تملأها العصافير، والأعمى ماطيو يمشي بعكازه الأبيض في شارع كابورُّو، وشجرة الفندق بسلسلة حروفها، ونهدا ناطاليا

المثيران، وسونيا تسأل لماذا لا يتزوج، والعم إيدموندو يتناول المتة في فناء داره عند الدالية، وجوليسكا تبكي بحسرة. وعندما كانت الطائرة تمرُّ بحياته للمرة العشرين، حدث في صدره ورأسه توتر أو قصف أو نسف ووجد نفسه فجأة أمام مرآة تعكس وجهه هو. رأى أن الوجه قد تحوَّل إلى قناع مرتعش، شاحب، مغتم. ثم ابتعدت المرآة ببطء لتعكس نصفه الأعلى كاملاً وعلى كتفه الأيمن اتكأت يد نحيفة، شبه هيكلية، كانت رغم ذلك يد ريتا. لم يتحمَّل تلك الصورة، ودون تردُّد كسر المرآة بجبهته. ولحِسن الحظ، كان هناك في الجانب الآخر جسد ماريانا العاري، وتمكّن من أن يسند ذراعيه إلى الردفين الرائعين القريبين الدافئين، وتمكن أيضاً من تقريب عينيه من تلك السُّرَّة الفريدة، سُرَّة التانغو والمتعة، سُرَّة العمل والاستراحة، سُرَّة اللهو والتحدّي، سُرَّة العزاء والحب، ونظر من خلالها كمن يتجسس من ثقب الباب. ومن خلال ذلك الثقب اللحمي العجيب، استطاع أخيراً أن يرى العالم، شوارع ومروج العالم، عالماً بناغازاكي ولكن بدون ريتا، وهذه نتيجة لا بأس بها. وعندما تحوّل ثقب الباب إلى سُرة ماريانا من جديد، أسند جبهته إليها وغمغم: «ماريانا وكفى». أفاق عندما لمس أحدهم ذراعه من جديد. كانت مضيفة. ولكنها لم تكن ريتا. «هل ستتناول الوجبة، سيدي؟» أومأ برأسه بالإيجاب، ففكّت له المائدة الصغيرة ووضعت عليها الصينية التي كانت بها

القهوة والسندويشات وعصير البرتقال. ثم قالت المضيفة مهتمَّة: «لديك إصابة في جبهتك. سآتيك بضمادة لاصقة حالاً».

كان قد بدأ يشرب العصير عندما سمع صوتاً يقول: «معكم الرُّبان أرنالدو بيرالطا. نخبر السادة المسافرين أننا سننزل في مطار كيتو بعد خمس وأربعين دقيقة».

عندما عادت المضيفة إليه بالضمادة، سألها إذا ما كان بإمكانها أن تستدعي زميلتها. وأضاف: «اسمها ريتا». نظرت إليه الفتاة مندهشة ثم قالت: «العفو، سيدي، لا توجد هنا أية مضيفة بهذا الاسم. زميلتي هي تلك الفتاة الممتلئة، ولكن اسمها تيريسا». فقال هو أنه بلا شك، قد اشتبه عليه الأمر. أكل السندويشين بجوع يكاد يكون جوع مراهق. وكان ما يزال هناك ثمة سؤال يراوده: في أية لحظة بدأ يحلم؟ وكان هناك يقين أيضاً: ابتداء من الآن، لن يعثر أحد على أثرٍ لريتا في بقايا القهوة.

نبذة عن المترجم:

محمد العشيري من مواليد 1950. درس في سبتة وتطوان والرياض. أستاذ في الأدب العربي في مدينة الدار البيضاء (1970_ 1981). ثم أصبح أستاذاً في العامية المغربية والإسبانية في المركز الثقافي الإسباني بالمدينة نفسها (1981_1994)، وعمل صحافياً في مجموعة ماروك سوار (1990_2003)، ويعمل حالياً أستاذاً للغة الإسبانية في الدار البيضاء. وله أربع مجموعات قصصية باللغة الإسبانية صدرت في (1994_2004_2006_2009)، فضلاً عن ترجمات عديدة في القصة والمسرح منشورة في إصدارات مختلفة في العالم العربي.

بقايا القهوة

تجري أحداث الرواية في النصف الأول من القرن الماضي وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية المطبوعة بهمجية القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناغازاكي من خلال الفصول القصيرة للرواية. يجذبنا أسلوب الكاتب البسيط الزاخر بالحيوية إلى الانغماس في أحداث موت أم كلاوديو وعثوره مع أصدقائه على جثة متشرد في حديقة حارة كابورو، والقبلة الأولى، والمباريات الطريفة لكرة القدم وأحداث ما بعد المباريات التي لا تقل طرافة عنها. كما نتعرف على شخصيات لا تنسى مثل الخادمة اليوغوسلافية الصارمة التي تتكلم بإسبانية مضحكة، وشخصيتَي ريتا وماريانا المحوريتين، وغيرها من الشخصيات التي تزخر بها هذه الرواية التي قال عنها قارئ مجهول: «بينما كنت منهمكاً في قراءة هذا الكتاب، غمرتني صور كثيرة من طفولتي، وأحداث كثيرة من حياتي، كأن الكاتب لم يكن يعرض حياة كلاوديو بل جزءاً من حياتي أنا، في بقعة من العالم نائية ومختلفة كل الاختلاف عن البلد الذي أنتمي إليه».











- المعارف العامة
- الفلسفة وعلم النفس
- الديانات
- العلوم الاجتماعية
- اللغات
- العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
- الفنون والألعاب الرياضية
- الأدب
- التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة